أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصلاة وَآتُوا الزكاة ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٤)

شرح الكلمات:

ميثاق–الميثاق عقد مؤكد بيمين وعهد (المفردات).

التفسير: ذكر الله تعالى في آيات عديدة سابقة ما ارتكبه اليهود من أفعال شنيعة ضد أنبيائهم، وبين أنه بسبب معاصيهم المتواترة نقل وعد النبوة في ذرية إبراهيم من بني إسحاق إلى بني إسماعيل.

والواقع أن إجرام اليهود ما كان قاصرًا على موقفهم المعاند من النبي ﷺ وسعيهم الدؤوب للقضاء على الإسلام والمسلمين. وإنما كانت هنالك سلسلة طويلة لجرائمهم أدت في آخر المطاف إلى انتقال نعمة النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل. ولقد عدّد الله جرائمهم المتكررة حتى لا يقال إن النبوة انتزعت منهم لجريمة واحدة فقط، وقال إن معاصيكم المتوالية هي التي جلبت عليكم هذه العقوبة. ثم بين الله أن حظ بني إسرائيل من النبوة لم يكن لفضيلة ذاتية فيهم، وإنما تشرفوا بها لوفائهم بالوعود الإبراهيمية، ولكنهم بعد ما ألقوها وراء ظهورهم وتنكروا لها لم يعودوا مستحقين لنعمة النبوة لمجرد كونهم من بني إسحاق.

ثم نبههم القرآن الكريم: إن جرائمكم اليوم ليست بأقل من الأمس، فها أنتم أولاء لا تنفكّون تقترفون ضد هذا الرسول ما كان شعبكم يقترفه في الماضي. ولو أن الله تعالى بعث فيكم اليوم نبيًا من شعبكم لفعلتم به الشيء ذاته. فقولكم أن تعاليم هذا الرسول ليست حجة علينا لأنه من بني إسماعيل قول باطل، ذلك لأن دأبكم في

الماضي مع أنبيائكم السابقين شاهد على أنه لو بعث أحدهم اليوم فيكم نبيًا لعاملتموه بمثل ما عاملتم به هؤلاء.

وفي هذه الآيات ينبههم الله تعالى قائلا: دعوكم من هذا التعليم السامي الذي تختلفون فيه مع هذا الرسول، وتعالوا تحققوا معنا فقط في الأعمال التي تروها أنتم أيضًا ضرورية للرقي القومي والأخلاقي، وأخبرونا: أتقومون بها أنتم؟ لقد سبق أن أخذنا عليكم عهدا مؤكدا يترتب على الوفاء به ثواب وعلى نقضه عقاب، فهل وفيتم به؟ وإذا لم تعودوا عاملين بدينكم، ومع ذلك تكفرون برسولنا هذا، فبوسعكم أن تقدروا مدى خطورة جريمتكم هذه عندنا.

والميثاق المشار إليه في هذه الآية ليس عهدًا معينًا ، وإنما المراد به عدة عهود أخذها الله تعالى من بني إسرائيل في مناسبات مختلفة ، وأوصاهم بالعمل بها؛ ولذلك لم تذكر هذه الوصايا في موضع واحد من التوراة وإنما توجد في مواضع متفرقة منها، وها هو القرآن الكريم قد جمعها في مكان واحد، تنبيها لهم بأنهم قد ابتعدوا عن دينهم بعدا شاسعا، فضلا عن أنه عرضها بأروع ترتيب مما يبرز حسنه وجماله.

أولا- ورد النهي عن عبادة ما سوى الله في أماكن عديدة من التوراة، بل جاء في الوصايا العشر لموسى عليه السلام: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور. أفتقد ذنوب الأباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، واصنع إحسانا إلى الألوف من محبّي وحافظي وصاياي." (خروج٢٠ :٣-٦).

ثانيا- وجاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين أيضًا في هذه الوصايا العشر حيث قيل: "أكرم أباك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك"(خروج ٢ :١٢).

كذلك جاء:"إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه، ويؤدبانه فلا يسمع لهما، يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه، ويقولان لشيوخ مدينته: ابننا هذا معاند ومارد، لا يسمع لقولنا، وهو

مسرف وسكير، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت. فتنـــزع الشر من بينكم، ويسمع كل إسرائيل ويخافون"(تثنية٢١ :١٨-٢١)

ثالثا- جاء الأمر بحسن معاملة ذوي القربى فقيل "لا تسع في الوشاية بين شعبك. لا تقف على دم قريبك. أنا الرب. لا تبغض أخاك في قلبك. إنذارا تنذر صاحبك ولا تحمل لأجله خطية. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك، أنا الرب"(لاويين١٩ :١٦-١٨).

علما بان كلمة 'أخ' وردت في التوراة عموما بمعنى الأقارب جميعا.

رابعا- أمروا بحسن معاشرة زوجة الابن فقيل"وان خطبها لابنه فبحـــسب حـــق البنات يفعل بها" (خروج٢١: ٩).

خامسا-أمروا بحسن معاملة الجـــيران فقيـــل:"لا تغـــصب قريبـــك ولا تـــسلب "(لاويين١٩: ١٣) [ورد في الطبعة الأردية:لا تغش جارك ولا تسلب منه شيئا].

سادسا- قد أمروا بحسن معاملة اليتامى فقيل"...والغريب واليتيم والأرملة الذين في أبوابك، ويأكلون ويشبعون، لكي يبارك الرب إلهك في كل عمل يدك الذي تعمل" (تثنية١٤:٢٩).

سابعا- أمروا بشأن المساكين فقيل"لأنه لا تفقد الفقراء مـــن الأرض لـــذلك أنـــا أوصيك قائلا افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك"(تثنية١٥:١١).

ثامنا- كما أمروا بحسن معاملة الناس جميعا فقيل: "ولا تقبل خبرا كاذبا ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم. لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر. ولا تُجِـــبْ في دعوى مائلا وراء الكثيرين للتحريف. ولا تُحابِ مع المـــسكين في دعـــوى. إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شاردًا ترده إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقعا تحت حمله وعدلت عن حله فلا بد وان تحل معه. لا تحرف حق فقيرك في دعواه. ابتعـــد عن الكلام الكذب. لا تقتل البريء والبار لأني لا أبرر المذنب"(خـــروج ٢٣: ١-٧). وقيل أيضًا "لا تخاصم إنسانا بدون سبب إن لم يكـــن قـــد صـــنع معـــك شرًا"(أمثال٣:٣٠).

تاسعا –جاء الأمر بإقامة الصلاة فقيل: "وراء الرب إلهكم تسيرون، وإياه تتقون، ووصاياه تحفظون وصوته تسمعون، وإياه تعبدون، وبه تلتصقون"(تثنية١٣:٤).
وكذلك جاء:"الرب إلهك تتقي، وإياه تعبد، وباسمه تحلف"(تثنية٦:١٣).
عاشرا- أمروا بأداء الزكاة فقيل:"وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها، وأما في السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك، وفضلتهم تأكلها وحوش البرية. كذلك تفعل بكرمك وزيتونك"(خروج٢٣: ١٠-١١)
ورغم هذه الوصايا الواضحة فان اليهود لم يعملوا بها بل، ساءت معاملاتهم يوما فيوما مع الأقارب والأباعد على السواء.
وقد قال بعضهم عن سيدنا عزير إنه ابن الله، ومن هؤلاء الذين اقترفوا هذا الشرك الفرقة الصدوقية التي كانت تقطن اليمن (الملل والنحل). وقد كان بعضهم يعتبر كل ما يأمر به علماؤهم كأنه وحي من الله، مع أنهم في نفس الوقت قد ألقوا تعاليم كتابهم وراء ظهورهم. وكانت معاملاتهم لليتامى والمساكين غاية في السوء، و لم يبق في قلوبهم أثر للعطف على بني الإنسان. وكانوا كسالى في أداء العبادات، ويتهربون من أداء الزكاة.
وهذا هو حال المسلمين اليوم، فانهم يدعون الإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى يقعون في نفس المعاصي التي وقع فيها اليهود. أما اليهود فقد أخذ منهم الميثاق ألا يعبدون إلا الله، ولكن الله تعالى قد منَّ على المسلمين حيث أسس الإسلام على" لا اله إلا الله" أي أن لا معبود سوى الله تعالى الذي هو القادر المطلق، والذي يقدر على فعل كل شيء ولا يحتاج لأي مساعدة. فرغم أن الإسلام بني على "لا اله إلا الله" فإن الشرك اليوم في المسلمين يربو على ما في الأمم الأخرى منه. فالمسلمون يسجدون للقبور بدون أدنى حرج..حتى لا نكاد نجد أي فرق بين الساجدين لله تعالى وبين هؤلاء الساجدين للقبور. كنت أتعجب دائما وأقول: كيف يمكن لمسلم أن يسجد لقبر، وكنت لا أصدق هذا الأمر رغم شهادة الشاهدين حتى رأيت ذلك بعيني. كنت ذات يوم مع بعض الإخوة في جولة ببلاد الهند لزيارة المدارس الإسلامية، ولقد سرني ما رأيت في مدرسة(افرنجي محل) ببلدة لكناو ... من كفاءة

المعلمين وثقافتهم، ومن نشاط الطلاب وذكائهم. ولكن أثناء رجوعنا في المساء أدهشني رؤية شخص يسجد لقبر كسجودنا في الصلاة. فإذا به أحد الأساتذة بهذه المدرسة. فتعجبت من هذا المعلم الذي لم يستفد من علمه و لم يقدره حق قدره وسجد لقبر!...مع أن الله لم يسرد حال اليهود للمسلمين إلا تنبيها لهم بأنهم سيقعون يوما فيما وقع فيه اليهود.

ومن المواثيق التي أخذها الله من اليهود أن يحسنوا إلى الوالدين، فنسوه. وكذلك اندرست هذه الحسنة بين المسلمين في هذه الأيام. يرون أن من واجب الآباء الإحسان إلى أولادهم وتربيتهم والأنفاق عليهم، ولكن لا يرون ضرورة إحسان الأولاد إلى الآباء والبر بهم.

ومما عهد إلى اليهود أيضًا أن يحسنوا معاملة ذوي القربى واليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس كلهم حسنا. وما أحسنه وأروعه من تعليم لا يثقل على النفس ولا يخالف العقل في شيء. وكما أن اليهود تركوا العمل بهذه التعاليم كذلك تركها المسلمون. ثم أمروا بالصلاة، ففرطوا فيها، كذلك أهمل المسلمون. فانظروا كم هو عدد المصلين من المسلمين اليوم. ثم أمروا بأداء الزكاة، ولكن ما أقل عدد الذين يواظبون على أدائها.

ويقول الله تعالى إن اليهود سمعوا هذه التعاليم وأعرضوا عنها و لم يعملوا بها ..وكذلك فعل معظم مسلمي اليوم وتولوا عنها، وجعلوا القرابة سببا للعداوة، فيخاصمون ويعادون ذوي قرباهم الذين أمرهم الله تعالى بحسن معاملتهم. لقد أمروا أن يترحموا ويتلطفوا باليتامى، ولكنهم تجاسروا على أكل أموالهم بصفاقة بالغة، وأمروا برعاية المسكين ولكنهم ينظرون إليهم نظرة تحقير ونفور. وأمروا بحسن القول لجميع البشر ولكنهم أهملوا هذه الوصية.

هؤلاء المسلمون يتهموننا بأننا نكفرهم، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم عناء النظر في حالهم، وهل هم يعملون حقا بالإسلام. لقد تحدثت مع كثير من المسلمين غير الأحمديين، وكلما دخلنا في مثل هذا النقاش سألتهم: ما هي عقيدتكم ؟ فيقولون: نحن مسلمون. فأقول لهم: إنني أيضًا اعتبركم من المسلمين، ولكن بالله عليكم

أخبروني.. هل يعمل المسلمون بحسب تعاليم الإسلام؟ فيضطرون إلى الاعتراف بأنهم لا يعملون بها، فأقول: هذا هو ما نقول عنكم: مسلمو اليوم لم تعد فيهم حقيقة الإسلام. وإلا فهم يقينا مسلمون بالاسم، ولا يسع أحد إنكار ذلك.

فكما أن المسلمين يدركون أن السرقة حرام، وان الكذب والافتراء حرام، وان غصب حقوق الناس حرام. ومع ذلك يرتكبون هذه المعاصي؛ كذلك تماما صار اليهود في زمن النبي ﷺ مشركين عابدين أهواءهم، ومع ذلك كانوا يجادلون المسلمين الذين يعملون بهذه التعاليم، بل بما هو أكثر منها. فيخاطب الله هؤلاء اليهود ويقول: قد تتعللون بالفرار من العمل بتعاليم محمد وعيسى عليهما السلام لأنكم لا تؤمنون بصدق نبوتهما.. فما عذركم لمخالفة تعاليم التوراة وهي كتابكم؟ فإعراضكم عن هذه التعاليم إعراضا تاما رغم إيمانكم بها ... إن دل على شيء فإنما يدل على أنكم لم يعد فيكم صدق.

غير أن القرآن –كما هو أسلوبه– عندما يعدد على اليهود سيئاتهم لم يعتبر أمتهم كلها في الإجرام سواء، وإنما استثنى منهم الصالحين فقال: (إلا قليلا منكم).

ويجب أن يلاحظ أنه كما روعي الترتيب في القرآن الكريم كذلك لوحظ ترتيب الكلمات بكل جمال في هذه الآية أيضًا. فقد أمر أولا بالإيمان بإله واحد وعبادته وحده حيث قال: (لا تعبدون إلا الله)..ذلك لأن التوحيد هو أصل أصول الدين، أو هو أصل أساسي مشترك في دعوة جميع الأنبياء. والذي يفهمه يمكن أن يفهم باقي مسائل الدين. ثم حث على حسن معاملة الآباء بقوله:(وبالوالدين إحسانا)..ذلك لأن العناية والعطف الذي يبديه الآباء نحو الأولاد إنما هو بمثابة الرعاية الإلهية. إن عطف الله تعالى هو العطف الحقيقي، أما عطف غيره فهو ظلي. ولما كان الآباء في معاملتهم لأولادهم مظهرا لصفات الله إلى حد ما.. لذلك ذكر حسن معاملة الآباء بعد ذكر التوحيد.

ويجب ألا ينخدع أحد بقول (وبالوالدين إحسانا) فيظن أن حسن معاملة الآباء يعني إحسانا بالمعنى المعروف لأن كلمة إحسان لم ترد هنا بمعناها العام.. وإنما وردت بمعنى آخر. فمن أساليب البيان في اللغة العربية أنهم يعبرون عن جزاء الفعل

باستعمال نفس الفعل، كما يسمون جزاء الظلم ظلما ...ولا يراد به الظلم، وإنما يراد به الانتقام من الظالم كما قال الله في هذه السورة نفسها: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (١٩٥). والواضح أن الانتقام من الظالم بقدر ظلمه لا يعتبر ظلما. فكلمة "اعتدوا" لا تعني هنا الظلم والعدوان وإنما يعني الانتقام. وبالمثل عندما يقال إن فلان أحسن إلى من أحسن إليه فإن معناه أنه فعل معه من المعروف ما هو نظير معروفه، ولا يعني أنه أحسن إليه فعلا. أما إحسانك إلى من لم يحسن إليك من قبل فيعتبر في الحقيقة إحسانا بالمعنى المعروف.

ثم أمر بحسن المعاملة مع ذوي القربى، ذلك لأن كل إنسان بطبعه يميل إلى الإحسان إلى ذويه وأقاربه بعد إحسانه إلى والديه؛ ولأنهم في غياب الوالدين يعتبرون كالآباء.

ثم يأتي دور عامة الناس اللذين لا يحسنون إليهم بالمعنى الحقيقي وإنما بمعنى أنهم من شعبهم، وقد ذكر منهم اليتامى أولا. ولم يأمر الإنسان بالإحسان إليهم لأنهم فعلوا به معروفا..وإنما لأنهم لا يقدرون بأنفسهم على أخذ حقوقهم لقلة حيلتهم وصغر سنهم، فتغتصب منهم بجسارة.

ثم إنهم يستحقون المحبة وحسن المعاملة أيضًا لأنهم قد حرموا من حنان الأبوين منذ طفولتهم، ولذلك يكونون أمانة ثمينة عند القوم. ولو عني الشعب بتعليمهم وتربيتهم وحماهم من الانحراف لصاروا جزءا مفيدا من القوم، ولن يتمكنوا من إصلاح حياتهم أو من العيش عيشة ناجحة فقط، وإنما يصلحون حياة الآخرين أيضًا.

ثم ذكر المساكين وهم أولئك الفقراء اللذين رغم فقرهم لا يشعرون أحدا بفقرهم عن طريق السؤال. وبذكر المساكين وجَّه الله نظرنا إلى ألاّ نكتفي بمساعدة من يمد إلينا يده ونغض النظر عمن يبقى صامتا، بل علينا أن نهتم بأولئك الذين رغم فقرهم يتحلون بالوقار ويؤكدون على سمو أخلاقهم.

ثم ذكر العطف على كل بني نوع الإنسان وقال: (وقولوا للناس حُسنا). وهناك قراءة أخرى تقول (وقولوا للناس حَسَنا). وقال البعض إن المراد: قولوا للناس قولا حسنا. بينما قال الآخرون: قولوا للناس قولا ذا حسن. وقد أخّر هنا ذكر عامة

الناس لأن هؤلاء لا يكونون محتاجين للغير كاليتامى والمساكين وإنما يقدرون بأنفسهم على سد حاجاتهم.

فبالجملة، قد راعى القرآن في بيان كل هذه التعاليم ترتيبا رائعا. فبعد أن نبه الخلق على ضرورة عبادة ربهم وحده صنف الناس صنفين، صنف تجب معاملته بالعطف كحق مستحق لهم، وصنف يجب الإحسان إليهم رحمة وشفقة بهم. وقد قدّم الصنف الأول لأن فعل الخير بهم صار دينا علينا لا بد من أدائه وسداده، وأخّر الصنف الثاني لأن إسداء المعروف إليهم يعتبر رحمة وشفقة عليهم. ثم تناول ذكر هؤلاء بالترتيب الذي يستحقونه. ثم تناول العبادات، وقدم الصلاة والزكاة على غيرهما لكونهما ذروة العبادات البدنية والمالية، وأخرهما عن الإحسان إلى خَلْق الله لكونه أول خطوة إلى عالم الروحانية، ولأن الإنسان بفطرته وبدون أي توجيه من الشرع كثيرا ما يميل إلى فعله، أما القيام بالعبادات مفصلا فهو خطوة ثانية، فالذي يخطو الخطوة الأولى هو الذي سوف يتمكن من اتخاذ الخطوة الثانية.

وليكن معلوما أن القرآن أحيانا يقدم ذكر حقوق الله نظرا إلى علو شأنه وسمو مقامه، فهو سبحانه هو الأعلى والعبد هو الأدنى... لذلك ذكر حقوقه هنا قبل حقوق العباد بينما يقدم القرآن ذكر حقوق العباد في أحيان أخرى، وذلك نظرا لضعف حيلتهم.. كما فعل في نفس الآية عندما ذكر اليتامى قبل المساكين نظرا لضعفهم وقلة حيلتهم. وحيث إن الله تعالى ليس بضعيف بل قوي قادر، لذلك أخر ذكر حقوقه. أما في قوله تعالى(و أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فقد قدم حقَّه على حقوق العباد.

وقوله تعالى (أقيموا الصلاة) يتضمن معنى المداومة على الصلوات المفروضة بدون أي انقطاع، كما يدخل فيها أيضًا النوافل. وقوله تعالى (وءاتوا الزكاة) يعني الزكاة المفروضة إلى جانب الصدقات التابعة لها. فكأن الله تعالى قد جمع في قوله (وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة)العبادتين البدنية والمالية كلتيهما.

وفي قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) حث على أمرين: الأول –حسن معاملة جميع بني الإنسان بدون تمييز بين دين أو شعب، والثاني- إعمال الفكر في رقي الإنسان وحث الآخرين على العمل لذلك.

على أي حال، فإن القرآن الكريم تناول التعاليم المبعثرة في التوراة هنا وهناك وقدمها بترتيب رائع كشف عن عظمتها أكثر.

ثم زجر اليهود قائلا: ما دمتم لا تؤدون حقوق الله وحقوق عباده ولا تبالون بأوامره مطلقا مع أنكم تعترفون بصدقها وصحتها، فكيف يصح القول بأنكم مع كل هذا مؤمنون.. وأن الأمة التي تسعى لإصلاح العالم كافرة؟ بل الحق أنه لم يبق بينكم وبين الله تعالى أي علاقة ... وإنما ابتعدتم عن الحق كل البعد.

ويجب هنا الرد على تساؤل طبيعي: لقد قال الله (لا تعبدون إلا الله) بدل أن يقول: (لا تعبدوا إلا الله) فما السر في اختيار صيغة النفي بدل من صيغة النهي هنا؟

من أساليب القرآن وكذلك اللغة العربية أنه في بعض الأحيان يستخدم صيغة النفي بدل النهي تأكيدا لمعنى النهي نفسه، كقولنا للصبي مثلا: أرجو أنك لن تفعل كذا. أو قولنا: ما كنت لأتصور أنك سوف تفعل هذا. والواضح أن هذا الأسلوب أبلغ من قولنا: لا تفعل هذا. وهنا اختار الله نفس هذا الأسلوب وقال لا تعبدون إلا الله.. بدلا من قول لا تعبدوا إلا الله إظهارا لثقته فيهم واعتماده عليهم، وكأنه يقول: ما كنا نتوقع أبدا أنكم ستشركون بنا أحدا، وإنما أملنا أنكم دائما وأبدا تعبدون الله وحده؛ أي لا تشركون بي.... لا لكون الشرك إثما فحسب وإنما سوف تتجنبونه أيضًا بسبب العلاقة التي بيني وبينكم. ما أشد هذا الأسلوب وقعا في النفوس وإثارة لعواطف الحب! فمن خالف أمر الله بعد كل هذا الحث كان أشد جرما، لأنه خالف الأمر من ناحية، كما خيب فيه الأمل من ناحية أخرى.

لقد أبدى المفسرون في تعليل هذا الأسلوب عدة آراء أخرى، منها أن الفقرة كانت هكذا (على أن لا تعبدوا إلا الله) وحذفت "على" الجارة و "أن" الناصبة، فصارت (لا تعبدون إلا الله) تفسير (إملاء ما من به الرحمن). ولا بأس بهذا التأويل.. إلا إنني أفضل الرأي الذي ذكرته فهو جميل من حيث الظاهر ومن حيث المعنى أيضًا.

يقول الله تعالى: إننا توقعنا من بني إسرائيل أنكم تعبدون الله تعالى وحده، وتحسنون إلى الآباء، وترعون اليتامى والمساكين، وتقولون للناس حسنا، وتصلون وتؤدون الزكاة.. وهذه الأحكام لا تختلفون فيها مع المسلمين. أنتم تختلفون معهم في صدق محمد، وتختلفون معهم في صدق المسيح الناصري، ولكن هذه أمور لا تختلفون فيها، بل إنكم تُسلّمون بها. لقد قيل لكم أن تتمسكواربالتوحيد، وأنتم تعترفون بأن هذا ما أُمرتم به من قبل؛ ثم قيل لكم أن تحسنوا إلى الآباء، وأنتم تسلّمون بأن هذا هو التعليم الذي وجه لكم ؛ ثم قيل لكم أن تعاملوا الأقارب واليتامى والمساكين معاملة حسنة، وأنتم تعترفون بأن هذا صحيح؛ ثم قيل لكم ألا تؤذوا الناس، ويجب أن تراعوا مشاعرهم وتعاملوهم بالحسنى، وأنتم تعترفون بأن هذه هي الأحكام التي أمرتم بها. فالسؤال الآن: هل تعملون بهذه التعاليم؟ لو درستم أحوالكم لأقررتم أنكم لا تعملون بها.

لا شك أنه رغم تفشي الفساد عموما فإنه لا يزال في كل أمة أفراد يتمتعون بالصلاح والتقوى، ولكنها ككل تعتبر أمة ميتة، لأن الأكثرية منها تعرض عن أوامر الله تعالى، وهذا، بالضبط، كان حال اليهود.

وقد يتساءل أحد: لعل اليهود أعرضوا عن هذه التعاليم في الظاهر فقط بسبب أمر اضطراري أو لجهلهم بها، وإلا فإنهم كانوا يُكنون لها تقديرًا وتعظيمًا كما هو حال المسلمين اليوم. فكم منهم لا يصلون وكم منهم لا يصومون، وكم منهم لا يؤدون الزكاة، وكم منهم لا يحجون رغم قدرتهم على أدائه، ولكنهم مع ذلك يعترفون من الصميم بأهمية الصلاة والصوم والزكاة والحج، ويرجعون سوء أعمالهم إلى الكسل والمعصية! ولإزالة هذه الشبه قال الله تعالى (ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون) فبكلمة (ثم توليتم) أشار إلى إهمالهم هذه الأعمال في الظاهر. وبكلمة (وأنتم معرضون) أشار إلى أن قلوبهم أيضًا لا ترغب فيها.. بل أهملوا الشريعة الموسوية كليا. فكأنه يقول: فأما في الظاهر فقد تفشت فيكم الإباحية واللادينية، وأما من حيث الباطن فقد متم موتًا روحانيًا.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٥).

التفسير: في هذه الآية أيضًا يوجه الله أنظار اليهود إلى عيبين آخرين من عيوبهم الاجتماعية التي كانت متفشية فيهم على وجه الخصوص في عهد النبي ﷺ. والمراد من (تسفكون دماءكم) هو قتلهم أفرادا من شعبهم، وقد جاء بهذه الكلمات لبيان أن من قتل أحد أفراد شعبه فكأنما قتل نفسه. لأن هلاك أو قتل أفراد من الشعب يؤثر على الشعب ككل. كذلك كلمة (تخرجون أنفسكم من دياركم) لا تعني خروجهم هم من بيوتهم، وإنما تعني إخراجهم أفرادا من شعبهم من بيوتهم كما يتبين من الآية التالية أيضًا، وإلا فليس أحد يخرج نفسه من بيته بنفسه. ولقد جيء هنا بكلمة أنفسهم وديارهم أيضًا لنفس الغرض ... أي لتبين حمقهم وجهلهم. ومعنى الآية أننا نهيناكم عن أن يقتل بعضكم بعضا، ولا يخرج بعضكم بعضا من داره... ولكنكم خالفتم أيضًا هذا الأمر. والآية التالية تبين نفس المعنى.

استهل سبحانه وتعالى هذه الآية بكلمة (وإذ أخذنا ميثاقكم) بينما في الآية السابقة بدأها بقوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل).... مع أن العهدين كليهما أخذا من بني إسرائيل أنفسهم، فما الحكمة في ذلك؟

إن من فضائل القرآن- وهناك آلاف الشواهد على كونه منقطع النظير- أنه يتغير بسيط في الكلمات يأتي بمفاهيم مختلفة واسعة، ويعبر ببضع كلمات عما لا يعبر عنه إلا في جمل. هنا، أيضًا، جاء القرآن بالضمير (كم) بدلا من بني إسرائيل ليوجه الأنظار إلى أمر هام.. هو بيان أن المساوئ المذكورة في الآيات السابقة كانت متفشية في بني إسرائيل كلهم في ذلك الزمان، ولكن المعاصي المذكورة في هذه الآية والتي بعدها كانت متفشية بصفة خاصة في القبائل اليهودية التي كانت تقطن المدينة وما حولها. فجاءت كلمة 'بني إسرائيل' عامة، ووردت كلمة 'كم' للتعبير عن اليهود في جزيرة العرب فقط لأنهم منغمسون في تلك المعاصي خاصة.

وقوله تعالى(ثم أقررتم وأنتم تشهدون) يوضح بأن المرء في بعض الأحيان يقبل شيئا بسبب الاحترام.. ولكن قلبه يبقى غير مطمئن فيما يتعلق بسموه وأهميته، أما أحكامنا هذه فقد كانت من السمو والأهمية بمكان، فصدقتموها بألسنتكم واعترفت أيضًا قلوبكم بصلاحها وجودتها... ومع ذلك لم تبالوا بهذا الاعتراف و لم تكترثوا بشهادة قلوبكم، وبدأتم الحرب ضد إخوانكم.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٦).

شرح الكلمات:

خزي- الخزي: الهوان، العقاب، البعد، الندامة (أقرب الموارد)

التفسير: تبين الآية أن اليهود فسدوا لدرجة أن الشريعة كانت نهتهم عن هاتين السيئتين.. ومع ذلك كانوا يقتل بعضهم بعضا ويخرج بعضهم بعضا من بيته.

والمراد من الإخراج من الديار إما نفي الناس من البلاد أو استعبادهم وحيث إن العبد يكون تابعا لصاحبه يذهب به حيث يشاء.. لذلك أرى أن الإخراج من الديار هنا يعني الاستعباد. خاصة وقد ذكر قبله سفك الدماء الذي يشير إلى الحرب، وهي التي تؤدي إلى أسر الناس وتعبيدهم.

ولقد ورد النهي عن قتل بعضهم البعض حيث قيل"لا تقتل"(الخروج٢٠:١٣).. وجاء النهي عن إخراج الناس هكذا: " ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد في يديه يقتل قتلا" (الخروج٢١:١٦).

كما ورد النهي عن اتخاذ أي إسرائيلي عبدا حيث قيل "وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير كنزيل يكون عندك. إلى سنة اليوبيل

يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه ويعود إلى عشيرته. وإلى ملك آبائه يرجع". (لاويين٢٥: ٣٩-٤١) وأيضًا جاء "وان لم يفك بهؤلاء يخرج في سنة اليوبيل هو وبنوه معه" (لاويين ٢٥:٥٤). وما فهمه اليهود من هذه التعاليم ظاهر في سفر النبي نحميا، حيث أعتق العبيد الإسرائيليين سواء أكانوا تحت الأمم الأخرى أو في أيدي الإسرائيليين أنفسهم. (نحميا٥:٨)

وفي زمن التلمود[1] أجمع اليهود على أنه لا يجوز استعباد يهودي. فقد ورد: "ادخل في الدستور التلمودي قرار أنه لن يتخذ أبدا أي من اليهود عبدا، حتى أن السارق الذي كان يباع بسبب جريمته أيضًا لم يكن يعتبر عبدا. وعندما أسر كثير من اليهود في حرب السلوقيين والبطالسة فقد اعتبر تحريرهم فرضا عليهم وعملا يثابون عليه (الموسوعة الكتابية ج ٤ تحت كلمة Slavery).

ويتبين من هذه التعاليم أن استعباد اليهود، وهو كإخراج الناس من ديارهم، كان أمرا منكرا بحسب التوراة. وكانت هناك أحكام بتحرير الأسرى بأسرع ما يمكن.

كان ثمة طريقان لاستعباد اليهودي: الأول- أن يبيع أحدهم نفسه لغيره. وهذا الأمر لا تجيزه الشريعة الإسلامية ولكنه كان جائزا في شرعهم، فكان لهم أن يبيعوا أنفسهم بسبب ديون أو جناية أو ضائقة مالية.

والثاني: أن تبيعه المحكمة لأحد نظير دين عليه أو جناية أدت إلى إلحاق الخسارة بالمجني عليه.. مثل السرقة والسطو على أموال الناس وغير ذلك. وكانوا في كلتا الحالتين يكرهون جدا أن يقع أحدهم عبدا في أيدي غير اليهود، حتى أن المحكمة نفسها كانت لا تبيع أحدا من اليهود لمن ليس يهوديا.

في هذه الآية يقول الله تعالى لليهود: إنكم رغم هذه التعاليم تقتلون أنفسكم ... أي يحارب بعضكم بعضا، كما أنكم تخرجون فريقا منكم من ديارهم ... أي أن فريقا منكم يتخذون عبيدا بسبب هذه الحروب، وهكذا تناصرون الأعداء ضد بعضكم البعض ظلما وإثما، مع أن شرعكم يحرم عليكم القيام بمثل هذه الأنشطة

[1] التلمود: مجموعة كتب تضم التقاليد المتداولة بين علماء اليهود إلى آخر القرن الثاني الميلادي.

ضد إخوانكم. ثم إذا يؤتى بهم إليكم أسارى تحرروهم بالفدية.. مع أنه محرم عليكم إخراجهم من ديارهم. أي أن الأمر الأول وهو الحرب التي تسبب أسرهم فتضطرون لتحريرهم بالفدية أيضًا، هذه الحرب نفسها كانت حراما عليكم، ولكنكم ترتكبون هذا الحرام أيضًا، مما يعني أنكم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض.

في هذه الآيات يشير الله إلى نشاطات اليهود التي كانوا يقومون بها بالاشتراك مع قبائل المشركين القاطنين في المدينة المنورة. كان في المدينة- قبل هجرة النبي ﷺ إليها -فريقان من المشركين هما الأوس والخزرج، وكانت بينهما حرب نشبت قبل بعثة النبي ﷺ بفترة قصيرة. وكان اليهود قد هاجروا إلى المدينة واستوطنوها بنية الإيمان بالنبي الموعود عند ظهوره في هذه البلاد (السيرة النبوية لابن هشام)، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو النضير. وكان الانحياز والتحزب إلى أي فريق هو مدار الأمن بحسب دستور ذلك الزمان.. وبدونه ما كان الناس يعتبرون أنفسهم في أمان. ولما كان الأوس والخزرج في حرب فإنهم تحالفوا مع قبائل اليهود، فصارت بنو قريظة وبنو قينقاع حلفاء الأوس بينما انحازت بنو النضير إلى الخزرج، وعند نشوب الحرب بينهما كان اليهود يشتركون فيها لمساندة حلفائهم بموجب المعاهدة. وهكذا كانت كل قبيلة يهودية بعملها تضطر نظيرتها أو أختها للخروج من الديار للحرب، وعندما كان اليهود المنهزمون يقعون أسرى مع الآخرين في يد الفريق المنتصر.. كانوا يلتمسون من الفريق المنتصر إطلاق سراح أسراهم.. لأن دينهم لا يسمح باستعباد أي يهودي، ويؤدون الفدية في مقابل ذلك، وكانوا يجمعون المال بالتبرعات لتحرير إخوانهم من ربقة المشركين (المرجع السابق).

فالله تعالى يدين اليهود بعملهم هذا ويقول: كنا نهيناكم عن الأمرين كليهما- عن التحارب، وعن استعباد إخوانكم- ولكنكم تتحاربون فتتسببوا في وقوع إخوانكم أسرى في أيدي أمم أخرى ولا تفكرون وأنتم تدفعونهم للأسر أنكم تخالفون أمر الله. ثم إنكم بعد أسرهم تتظاهرون بالصلاح فتحاولون تحريرهم بالفدية.. محتجين بأن الله قد حرم في شر عنا استعباد اليهود. فما أشنعها من جريمة.. تؤمنون ببعض

الكتاب وتكفرون ببعض! تُحررون إخوانكم من الأسر بعدما دفعتموهم بأيديكم دفعا إلى هذا الأسر.. مع أنه ليس هناك أي خلاف بينكم وإنما تفعلون كل ذلك ولاء للقبائل المشركة!

وتذكر كتب التاريخ أن قبائل العرب عندما كانوا يعيرون اليهود بذلك.. كانوا يردون عليهم قائلين: لا شك في حرمة التحارب فيما بيننا. ولكن الخجل من حلفائنا يدفعنا إلى الحرب في صفهم.. لذلك نحررهم بعد الحرب بالفدية (تفسير البحر المحيط تحت قوله: وتخرجون فريقا منكم من ديارهم)

فقوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) يبين أن العامل ببعض الكتاب يعترف عمليا بصدق كل الكتاب، فتركه للبعض الآخر لا يدل إلا على فساد باطنه.

وقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب).. أي قد أتيحت لكم فرص للإصلاح مرارا، كما أنكم كنتم على علم بأوامر الله تعالى.. فليست عقوبة أمثالكم على هذه الجرائم إلا الخزي والهوان في الدنيا، وأما في الآخرة فسوف تذوقون عذابا أشد من هذا.

الواقع أن هناك مرضا شديدا وخطيرا ومدمرا لروح الإنسان.. ألا وهو أن كثيرا من الناس يرون الكفاية في العمل بما يجدونه من التعاليم الدينية موافقا لأفكارهم وأهوائهم وميولهم؛ ولا يبالون مطلقا بأن هناك الكثير من التعاليم التي هم معرضون عنها بكل جسارة. ولما كان المرء تتغير عاداته بتغير الظروف والبيئات المحيطة به.. لذلك فإن لكل واحد ذوقا خاصا، فيعمل بما يوافق ذوقه ويهمل مالا يتناسب معه. فمثلا لو نظرنا إلى أهل المناطق المختلفة من بلادنا لرأينا أهل منطقة يواظبون على أداء الصلوات بكل حرص ولكنهم كسالى في الصوم. بينما يهتم أهل منطقة أخرى اهتماما خاصا بأداء الزكاة ولكنهم لا يبالون بالصلاة والصوم. وفي منطقة ثالثة يداومون على الصلاة والصوم ولكنهم غافلون عن أداء الزكاة. وفي منطقة رابعة نجدهم لا يحجون وان استطاعوا إلى الحج سبيلا. وفي منطقة خامسة نجدهم يذهبون إلى الحج ولكنهم قلما يصلون حتى أثناء سفرهم للحج. ومثل هذه الصلاة والزكاة

والصوم والحج لا يمكن أن تسمى طاعة لأوامر الله.. ذلك لأنهم لو أطاعوا الله بصدق لأدركوا أن الذي أمرهم بالصلاة هو الذي أمرهم بالصوم، وأن الذي أوصاهم بالزكاة هو الذي أوصاهم بالحج..ولكن عملهم بأمر وإعراضهم عن أمر آخر لدليل على أن ما يسميه هؤلاء انقيادا وطاعة لله ليس في الحقيقة كذلك، وإنما هو خداع في نفوسهم.. لأن الطاعة لله والانقياد له سبحانه إنما يتحققان إذا انقاد المرء لكل أمر من أوامر الله انقيادا تاما.. سواء أكان هذا الأمر موافقا لأهوائه وأفكاره وتقاليده أو مخالفا لها.

كما أن هناك كثيرا من الناس الذين لا يوجد في طباعهم شيء كالغضب، فإذا كلمهم أحد بما يثير الغضب يتلقونه بكل هدوء وانبساط. وإذا كان هؤلاء في موقف يتطلب منهم الغضب في سبيل الله تعالى لم يغضبوا، بل عفوا وصفحوا. ويتبين عندئذ أن عفوهم وصفحهم ليس من طاعة الله في شيء، ذلك أنه لو كان عفوهم نابعا من طاعتهم لأمر الله ومشيئته لما عفوا في موقف يمنع الله فيه من العفو. فليست الطاعة أن يتبع المرء من أمر الله تعالى ما يحلو له ويتناسب مع ذوقه، وإنما الطاعة أن يعمل الإنسان بكل ما أمر الله به .... وان كان يتنافى مع ذوقه وعاداته. هنا أيضًا يخبر الله عن اليهود أن هذا هو حالهم. فأما الكبائر فكانوا يأتونها غير مكترثين، وأما الصغائر فكانوا يتجنبونها قائلين لقد نهانا الله عنها. يقول الله تعالى: كيف نرضى بطاعتهم هذه: يتبعون من الأوامر ما يجدونه موافقا لأهوائهم ولا يتبعون ما ليس كذلك؟ إننا سوف نخزي هؤلاء ... لأنهم عندما يرون من أوامري الهامة ما لا يتناسب مع أهوائهم يضربون به عرض الحائط، وعندما يجدون ما يتفق مع أهوائهم ينفذونه... مع أن المؤمن الحقيقي هو ذلك الذي لا يريد إلا وجه الله ورضاه في كل صغيرة وكبيرة.

كان الخليفة الأول لسيدنا المهدي والمسيح الموعود- عليه الصلاة والسلام- يقول أنه كان ذات مرة يعظ أحد الزناة بالامتناع عن هذه المعصية فقال: لقد وعدت هذه المرأة أن أبقى وفيا معها....فهل تريدني أن أرتكب جريمة إخلاف الوعد؟! فكأن الرجل رأى إخلاف الوعد ذنبا ومعصية، ولكنه لم ير في الزنا أي معصية!

فعلى المؤمن أن يكون على الدوام حذرا يقظا، فلا يسخر كاليهود بأوامر الله فيعمل بما يشاء منها ويهمل ما يشاء. لقد أنبأ النبي ﷺ أنه سيأتي على المسلمين زمان يتبعون فيه آثار اليهود شبرا بشبر وذراعا بذراع (صحيح البخاري-كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)، وفي رواية يشبهون اليهود حذو النعل بالنعل. وقد تحقق قوله ﷺ حيث رأينا انه لما أخذ المسلمون في الانحطاط تسربت إليهم كل تلك المساوئ اليهودية معصية تلو معصية؛ فقد قيل لليهود (لا تسفكون دماءكم)أي لا تحاربوا ضد فريق من أمتكم ولا تسفكوا دماءهم فتذهب ريحكم. وقد وجه نفس هذا النصح للمسلمين أيضًا.. ولكن تاريخ زمن انحطاط المسلمين شاهد على أنهم بأيديهم سفكوا دماء إخوانهم المسلمين، ولجئوا للقضاء على الحكومات الإسلامية إلى كل نوع من المكائد السرية والمؤامرات الخفية، وتعاهدوا وتآمروا مع الدول المسيحية للإطاحة بعروش الدول المسلمة، فقد اتفقت الدولة المسلمة في الأندلس مع ملك روما المسيحي للقضاء على الحكومة العباسية، وتم الاتفاق بين العباسين وبين الإمبراطور الفرنسي لإسقاط الملوك المسلمين في الأندلس. لقد لطخوا أيديهم بدماء إخوانهم غير مكترثين بما يصيب الإسلام من أضرار فادحة بسبب إقحامهم المسيحيين في السياسة الإسلامية. وكذلك عندما كان صلاح الدين الأيوبي يتصدى لهجمات أوروبا كلها تآمر المسلمون مع الدول المسيحية لاغتياله، بل اختاروا لقتله رجلا مسلما هجم عليه ليغتاله وهو يصلي، ولكن عناية الله تداركته فنجا من القتل. ثم إن الله ذم سياسة اليهود المزدوجة وقال إنكم من ناحية تحاربون إخوانكم ومن ناحية أخرى تحرروهم بأداء الفدية. وهذا ما فعله المسلمون أنفسهم حيث إنهم أبان الحرب العالمية الأولى انضموا إلى صفوف أعداء الأتراك إخوانهم في الدين وحاربوهم ولكنهم حينما أُسروا سعوا إلى تحريرهم بالفداء. فالمسلمون أيضًا ساروا على نفس الدرب الذي سار فيه اليهود.. مع أن الله تعالى لم يسرد هذه الأحداث عن اليهود إلا تحذيرا للمسلمين حتى لا يسمحوا لهذه المساوئ أن تتسرب إليهم. وفيما يتعلق بمصطلح أهل الكتاب ... فلا شك أن اليهود والنصارى هم أهل الكتاب ولكن من ينكر أن المسلمين أيضًا من أهل الكتاب؟ بل لا أحد يستحق

اسم أهل الكتاب حقيقة سوى المسلمين ... لأن الله تعالى قد وهبهم كتابا كاملا في حين أن الأمم الأخرى ليس لديها أي كتاب كامل مبرء من كل عيب مثل القرآن. لذلك كان من واجب المسلمين –لكونهم أهل الكتاب الحقيقيين – أن ينظروا بعيون مفتوحة حذرة إلى مفاسد اليهود والنصارى حتى لا تتسرب إليهم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٧)

التفسير: ذكر في هذه الآية أن اليهود آثروا الدنيا على الدين، وعقابا على ذلك سينتزع منهم السلطان الدنيوي، ولن يخفف عنهم هذا العذاب إلا إذا آثروا الدين مرة أخرى. وقد يعني قوله (فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون)، أنه لا يخفف عنهم العذاب السماوي كما أن أمم العالم أيضًا لن ترحمهم في الدنيا؟

إن من أساليب القرآن في ترتيبه أنه يعيد في آخر الموضوع ذكر ما بدأ به إيذانا بانتهائه وبداية موضوع جديد، فكان ذكر في البداية زَعْمَ اليهود (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) والآن جاء هنا بقوله (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون).

ذلك ليشير أن الآيات السابقة أيضًا تبحث في نفس الموضوع، وقد انتهى الآن بهذه الآية فحذر اليهود أنكم بسبب اتخاذكم أحكام الشرع لعبة لن تبرحوا هدفا لعذاب الله في مختلف الصور ولن ينصركم أحد. فادعاؤكم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ادعاء باطل، وسوف تعذبون عذابا لن يخفف عنكم بمعنى أنكم سوف تلتاعون وتتألمون من شدته لزمن طويل.

كما كانوا يزعمون أيضًا أنهم من أولاد الأنبياء فهم سوف ينصرونهم، فأبطل الله زعمهم هذا وبين أنه لن ينصرهم أحد.

والعهد الذي ذكره القرآن قبل هذه الآية كان عهدا عاما، أما العهد الذي تناوله فيما بعد فهو عهد خاص باليهود المقيمين في المدينة وحولها زمن النبي ﷺ. ثم ذكر اثنين من المساوئ الاجتماعية التي وقع فيها اليهود خصوصا المعاصرين للنبي ﷺ،

فذكر منها أولا تلك المساوئ التي تفشت فيهم نتيجة تركهم للحسنات، ثم ذكر التي تعتبر في حد ذاتها إثما وظلما.

وليكن معلوما أن السيئات نوعان: نوع يتعلق بالإنسان نفسه، ونوع آخر يتعلق ببني جنسه. ثم إن النوع الأول أيضًا قسمان: أولهما-هو تلك السيئات التي يشعر الإنسان بالإثم عند ارتكابها فيحاول إخفاءها، وثانيهما- هو تلك السيئات التي لا يشعر وقت اقترافها أنه يرتكب إثما. وفي قوله تعالى (تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) يضرب الله تعالى مثالا لاثنتين من سيئات اليهود التي كان من المفروض أن يخافوا لومة الناس على ارتكابها، ورغم كونهما سيئتين واضحتين واجتماعيتين.. إلا أنهم ما زالوا يقترفونهما بكل جسارة ومن دون أدنى خوف من اللوم، وهكذا استمروا في هتك حرمة شريعتهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٨).

شرح الكلمات:

قفينا- قَفّى فلان زيدا: تبعه. وقفّاه: أتبعه إياه. القفا: مؤخر العنق. فالأصل في قفّاه أن يكون التابع وراء المتبوع وقريبا منه، ولكنهم توسعوا فقيل لمن تبع أحدا وإن كان على مبعدة: قفاه (الأقرب).

بينات – هي تلك الأدلة التي في حد ذاتها تشكل برهانا على صدق النبي. فالأدلة على نوعين: الأول ما يستنبط منه صدق نبي، فمثلا نستدل بفساد أهل زمان ما على ضرورة مجيء نبي، فنقول: قد عم الفساد في العالم ونسي الناس الشرع وتركوا العمل بتعاليمه فلذلك لا بد من نبي ... وهذا المدعي هو النبي الموعود. فكل هذه الأمور يستنبط منها ضرورة ظهور نبي. إنها أدلة بلا شك، ولكنها ليست بينات. ويندرج في هذا النوع أيضًا تلك الأنباء التي تدل على قرب ظهور نبي، ولكنها لا

تحدد زمن ظهوره، فهي ليست بينات ومنها على سبيل المثال الآيات والأحداث التي ظهرت قبيل مبعث محمد ﷺ، والتي يمكن أن نستنبط منها صدقه. إنها أدلة على صدقه ولا شك، ولكنها لا تؤكد بصورة قطعية على أنه النبي ﷺ، فلا تسمى بينات.

والنوع الثاني من الأدلة تسمى بينات، وهي التي تشكل بحد ذاتها برهانا مباشرا على صدق النبي، وهي التي تجعل صدقه مشهودا، والتي تبين الصدق من الباطل تبيانا.. مثل الطاعون الذي أنبأ بتفشيه المسيح الموعود، وكذلك أنبأ النبي الكريم بذلك من قبله. فظهور الطاعون في زمنه ليس دليلا على صدقه فقط، بل إنما هو 'بينة'، لأن تحقق هذا النبأ لا يعين زمن ظهور المسيح المنتظر، وإنما يبين أيضًا أنه هو نفسه المسيح المنتظر. إذن فالبينة ما يدل على صدق النبي دلالة واضحة لا غبار عليها، وغيرها هو ما يثبت صدقه بالإشارة والتلميح فحسب.

وأدلة صدق المسيح الموعود- عليه السلام- بعضها من نوع الإشارة والتلميح، وبعضها من البينات. والواقع أن كل نبي قد أوتى كلا النوعين من الأدلة، لان الأدلة الواردة في شكل الإشارة والتلميح وحدها لا تكفي لإثبات صدقه، بل لا بد إلى جانبها من البينات ليتضح صدقه لعامة الناس وإلا لن يعلموا أنه هو الشخص المنتظر الموعود. لقد بين أبو حيّان معنى البينات في تفسيره فقال: البينات الحجج الواضحة الدالة على النبوة (تفسير البحر المحيط).

روح القدس- الروح: الكلام، والقدس: المقدس أو المبارك (لسان العرب). فروح القدس يعني كلام الله المقدس المبارك. ويتضح بمطالعة قواميس اللغة أن كلمة التقديس لا تستخدم إلا للأشياء التي لها علاقة بالله تعالى. لا شك أن هناك كلمات عديدة تعطي معنى الطهارة، لكنها لا تتقيد بهذا الشرط، وإنما افترض في التقديس وحده أنه لا يطلق إلا على ما يتعلق بالشرع والأمور الروحانية.. مما يعني أن الطهارة المقدسة إنما هي ما تكون مرتبطة بالشرع. فمثلا لا يسمى أي مكان مكانا مقدسا إلا إذا كان له شرف في الدين ودرجة من حيث الروحانية. فكلمة النظافة

أيضًا تعني الطهارة، ولكنها لا تختص بالنظافة الدينية والروحانية. فالكافر يمكن أن يكون نظيفا، لكن لا يسمى رجلا مقدسا إلا الذي نال شرفا روحانيا وعزة من الله تعالى. فلا يمكن أن تسمى الأفكار النبيلة وحدها كلاما مقدسا ومباركا.. وإلا فان أفكار فيلسوف أيضًا يمكن أن تكون نبيلة لأنه هو الآخر لا ينفك يأتي بنكات جديدة عن طبيعة الأشياء، ولكنه لا يكون مؤيدا بروح القدس، ولا مشرفا بالوحي الإلهي. إنه لا يحظى بتلك الأفكار التي تأتى من الله. فالكلام المؤيّد بروح القدس إنما هو ذلك الذي ينزل من الله ويكون مباركا وطاهرا من كل النواحي.

وتعني الروح أيضًا المَلَك، فيكون معنى روح القدس: ملك التقدس والبركات. والملائكة نوعان: نوع ينزل بكلام الله ونوع آخر يقوم بتنفيذ كلام الله تعالى أو قضائه في الكون. فالملائكة الذين ينزلون بكلام الله يسمون روح القدس. وتطلق كلمة روح القدس على جبريل عليه السلام سيد الملائكة النازلين بكلام الله. فيعني قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) أن الله نصره بملاك التقديس والبركات الذي ينزل بكلامه، أو أنه عز وجل شرّفه وأعزه بكلامه المقدس المبارك.

التفسير: فقوله تعالى (وقفينا من بعده بالرسل) يعني أنه عز وجل أرسل بعد موسى أنبياء كثيرين. ليس ذلك فحسب، وإنما يبين أيضًا أن هؤلاء الأنبياء لم يأتوا بشرع جديد بل كانوا تابعين لموسى وعاملين بشرعه – عليهم السلام. لقد استدل سيدنا المسيح الموعود عليه السلام من هذه الآية وقال: قد جاء بعد موسى العديد من الأنبياء الذين لم يكن معهم شرع جديد، وإنما كانوا يدعون الناس إلى تعاليم التوراة وينشرون أحكامها (شهادة القرآن، ص٤٤).

إن عامة المفسرين يظنون أن كل نبي يأتي بشرع جديد، ولكن الله تعالى قد صرح هنا بكل وضوح أن الأنبياء المبعوثين بين موسى وبين النبي الكريم-عليهم الصلاة والسلام-كلهم كانوا تابعين لموسى وعاملين بشرعه. ولقد اعترف بذلك العلامة أبو حيان في تفسيره لهذه الآية وقال: ويحتمل أن تكون التقفية معنوية، وهي كونهم

يتبعونه بالتوراة وأحكامها ويأمرون باتباعها والبقاء على التزامها (تفسير البحر المحيط).

قوله (ءاتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس).. إن كون عيسى بن مريم محظوظا بالبينات ومؤيدا بروح القدس ليس مما يختص به عيسى وحده .. .حتى يستدل بذلك على أفضلية له على غيره من الأنبياء؛ فقد ذكر القرآن في هذه السورة نفسها أن موسى أيضًا قد أعطي البينات، فقال (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) (٩٢).

كما قال الله تعالى للرسول الكريم :(ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) (١٠٠) كذلك ذكر الله هلاك الأمم السابقة للنبي ﷺ وبين سبب هلاكهم قائلا: (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا، فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب) (غافر:٢٣) ويوضح هذا جليا أن سائر الأنبياء المبعوثين للخلق قد أتوا بالبينات أيضًا وإلا كان من المستحيل أن يتبين للناس صدقهم. فلم يذكر الله هنا البينات وروح القدس لبيان خصوصية للمسيح الناصري، وإنما ذكرها ليبين لليهود أن المسيح أيضًا قد أوتى البراهين الدالة على صدقه كما أوتيها غيره من النبيين الذين تؤمنون بصدقهم. كما ذكر هنا روح القدس لبيان أن المسيح أيضًا كان يتلقى الوحي من الله كالأنبياء الآخرين وليس لأن له أفضلية على غيره من الرسل أو أنه صاحب شرع.

ولو أخذنا الروح بمعنى الملك، وكان روح القدس بمعنى الملك المقدس.. لكان المعنى أن الله تعالى أمر جبريل وغيره من الملائكة بتأييد المسيح، فيجعل له القبول في قلوب الناس أو يثبت قلوبهم. ويتأكد هذا المعنى بقوله تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي)، (المائدة:١١٢). والبديهي أن وحي الله ينزل عموما بواسطة الملائكة. فمن معاني الآية أن الله تعالى أيد المسيح بجبريل وهذا ليس خاصا بالمسيح وحده وإنما سائر الأنبياء وكبار المؤمنين أيضًا يؤيدون من الله تعالى. كما ذكر القرآن أصحاب النبي ﷺ (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح

منه) (المجادلة: ٢٣)..أي أن الله تعالى قد رسخ الإيمان في قلوبهم ونصرهم بإرسال الروح أي الملائكة. لم يرد هنا (روح القد س)، بل قال (روح منه) ولكن الواضح أن الروح التي تكون من الله لا تكون إلا مقدسة. وأيضًا قال الله تعالى لنبيه ﷺ (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) (النحل: ١٠٣): أي قل للناس إن روح القدس قد نزل هذا القرآن من ربك بالحق والحكمة لكي يجعل به المؤمنين ثابتين على الإيمان للأبد، ولكي يزيدهم به هدى ويبشرهم بالخير. وقال أيضًا(فإنه نزله على قلبك بإذن الله..)(البقرة:٩٨)..أي نزله روح القدس على قلبك بإذن الله. فكون المسيح قد أوتي البينات ونصر بروح القدس لا يضفي عليه أي فضيلة خاصة دون سائر الأنبياء.

وعلاوة على القرآن فان أقوال الرسول ﷺ تؤكد أن نزول روح القدس ليس خاصا بالمسيح، بل يمكن أن ينزل على غيره من الأنبياء، أو حتى غير الأنبياء. إن حادث حسان بن ثابت خير شاهد على ذلك. فقد كان الأشرار في زمن النبي ﷺ يهجونه وأزواجه المطهرات في أبيات من الشعر هجوا فاحشا، وتحمل الصحابة كل ذلك لفترة من الزمن بسبب تعليم النبي ﷺ بالتمسك بالصبر. ولكن لما تجاوز خبثهم الحدود طلب بعض الصحابة من سيدنا حسان أن يرد عليهم، فجاء النبي ﷺ يستأذن في هذا قائلا: لقد أكثر هؤلاء هجوك، فدعني أرد عليهم وأكشف مثالبهم للناس. فقال النبي ﷺ: كيف تهجو آباءهم وهم آبائي أيضًا؟ قال: يا رسول الله، كن مطمئنا "لأسلنك منهم كما يسل الشعر من العجين". وقوله هذا دليل على تصرفه بأعِنَّة الكلام، لأن الشاعر المتمكن هو الذي يستطيع أن يهجو عدوه بحيث لا يقع في ذم آبائه. على أية حال، أذن له الرسول ﷺ قائلا: "اهج قريشا وروح القدس معك"(البخاري، المناقب).وفي رواية أن النبي ﷺ قال لحسان: "اهج قريشا وجبريل معك".. حتى أن حسانا قال في شعره:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

أي أن رسول الله جبريل موجود بين ظهرانينا، وليس لروح القدس هذا مثيل.. مما يدل على أن روح القدس كان يؤيد الصحابة كلهم. وفي رواية ثالثة أن الرسول

ﷺ أمر حسان بالرد على هجاء الكفار ودعا له: "اللهم أيده بروح القدس" (مشكاة المصابيح، باب البيان والشعر). وفي رواية أنه ﷺ قال:"اهج المشركين فإن جبريل معك"(البخاري).

فكيف يحق للمسيحيين بعد كل ذلك أن يستدلوا بكون المسيح الناصري مؤيدا بروح القدس على أنه إله أو ابن الإله. فليس في ذلك أي خصوصية له، بل كان سائر الرسل والصالحون مشتركين في هذه الميزة، وكان كل واحد منهم مؤيدا بروح القدس بحسب مكانته عند الله تعالى، حتى إن الخواجة معين الدين الجشتي – وهو من كبار أولياء الله في الأمة الإسلامية- يقول في ديوانه ما تعريبه: إن روح القدس ينفخ الروح في نفسي كل لحظة، حتى خيل إلي أنني صرت مسيحا ثانيا(ص٥٢). وإذن ليس في كون المسيح مؤيدا بروح القدس ما يدعو إلى الاستغراب والإعجاب. ولا بد هنا من الرد على تساؤل: إن صح القول بأن قوله تعال:" وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس" لا يشير إلى ميزة خاصة في المسيح..فلماذا خصه القرآن هنا بالذكر وبمثل هذه الكلمات بعد الحديث عن موسى ثم الأنبياء ككل؟

يستنتج النصارى من ذلك أنه لما كان المسيح أفضل من غيره من الأنبياء وأسمى منهم درجة.. لذلك ذكره القرآن على حدة، ولو كان مجرد رسول ما ذكره هكذا.

فأما المفسرون فيقولون: كان الأنبياء الآخرون تابعين للشرع الموسوي و لم يكن لهم شرع جديد مستقل، لذلك ذكروا جماعة، ولكن عيسى لم يكن تابعا للشرع الموسوي.. بل جاء بشرع جديد فجاء ذكره على حدة.

وهذا الرأي غير صحيح، لان المسيح نفسه يقول:" لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء؛ ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل " (متى ٥:١٧، ١٨). فالقول بأن المسيح قد ذكر على حدة لأنه جاء

بشرع جديد قول خاطئ ولا شك. ولكن يبقى السؤال كما هو: ما السر في ذكره على حدة؟

ليكن معلوما أن اليهود- بشكل أو بآخر- كانوا يعظمون سائر الرسل المبعوثين في بني إسرائيل قبل المسيح الناصري. لا جرم أنهم عارضوهم في البداية، ولكنهم اعترفوا بصدقهم آخر الأمر؛ فلا تزال كتب أنبيائهم إلى النبي "ملاخي" موجودة في التوراة، يقرءونها ويرونها صالحة للعمل، حتى أن داود وسليمان عليهما السلام اللذين رموهما بالارتداد في آخر العمر قد جاء ذكرهما في التوراة، ولا يزال اليهود يعظمون أقوالهما بغض النظر عن أعمالهما. ثم إنهم يعتبرون زكريا ويحيى من علمائهم وصلحائهم وإن أنكروا نبوتهما. فكل هؤلاء يعظمهم اليهود وإن كانوا يعدون بعضهم من الصلحاء والعلماء فقط. أما المسيح فكان اعتقادهم فيه اعتقادا فاسدا ونجسا للغاية، فيرمونه بتهم شنيعة خطيرة، ويعتبرونه مفتريا وملعونا- والعياذ بالله. فكان ضروريا عند الحديث عن معارضة اليهود للأنبياء أن يذكر المسيح ذكرا خاصا مستقلا لأنهم أساءوا إليه أكثر من غيره، وكانوا حتى إلى زمن نزول القرآن مصرين على الاعتقاد أنه- والعياذ بالله- من المفترين و لم يكن من الصادقين. وكان ضروريا أيضًا أن يصرح القرآن عند الحديث عن عداء اليهود للمسيح أن الله أعطاه من البراهين على صدقه مثلما أعطى غيره من الأنبياء الذين يصدقهم اليهود أنفسهم. فذكر من هذه البراهين الساطعة على صدق الأنبياء برهانين. أولهما-أنه أوتى البينات.. أي الحجج الواضحة التي يظهر بها صدق النبي، وثانيهما –التأييد بروح القدس الذي لا غنى لأي نبي عنه. ولقد تناول ذكر البينات وروح القدس خاصة عند الحديث عن المسيح أيضًا لأن اليهود إنما كانوا يعترضون عليه لأنه أولا- لم يرهم آية معجزة، وثانيا- لأنه –معاذ الله –نجس، وأن روحا شيطانية تنزل عليه. وقد ورد اعتراضهم بأنه لم يرهم آية معجزة فيما يلي:"حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم، نريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطى له آية إلا آية يونان (يونس)

النبي.لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالي.. هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالي" (متى ١٢: ٣٨-٤٠).

أما اعتراضهم بأن الشيطان ينـــزل عليه فقد جاء فيما يلي: "وكان يخرج شـــيطانا وكان ذلك أخرس. فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس، فتعجب الجموع. وأمـــا قوم منهم فقالوا: ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين "(لوقا ١١: ١٤ ،١٥). بل إنهم سموا المسيح 'بعلزبول'، وذكر هو ذلك وهو ينصح تلاميـــذه قـــائلا: "إن كانوا قد لقبوا رب البت بعلزبول فكم بالحريِّ أهل بيته"(متى١٠:٢٥)

فبقوله"آتينا عيسى بن مريم البينات "يدحض الله اعتراض اليهود الأول ويقول: لقد أريناكم على يد المسيح آيات عظيمة.هذا مع العلم بأن الإنجيل - للأسف الشديد- لا يذكر من معجزاته ما يكون حجة على اليهود. كانت له معجزة واحدة هامـــة في هذا الصدد، ولكن النصارى- لجهلهم- قد جعلوها موضع شبهة. إنها تلك التي تحدث عنها المسيح نفسه حيث قال: لا تعطى لهم إلا آية يونس النبي. وكانت آية يونس أنه مكث في بطن الحوت حيا لثلاثة أيام وثلاث ليالي، وخرج منـــه حيـــا. ولكن النصارى يقولون إن المسيح مات على الصليب ودخل القبر وهو ميـــت، ثم قام من الموت وصعد إلى السماء. لقد كان لهذه المعجزة شقان: شق يتعلق بالناس، وجعله النصارى أنفسهم مشتبها فيه باعتبار المسيح مات على الصليب ودخل القبر ميتا، وشق آخر يتعلق بقيامه من الأموات وهذا ما لا يصدقه اليهود. فكأن الآيـــة الوحيدة التي قدمها المسيح لليهود أيضًا لم تتحقق طبقا للإنجيل؛ لأن أحد شقيها لم يتحقق حسب قول النصارى، بينما الشق الثاني ليس حجة على اليهود.

فقد ذكر الله البينات هنا خاصة ليفند اعتراض اليهود على المسيح، ولم يكن هناك أي داعي لذكرها في حق الأنبياء الآخرين.. لأنهم لم يعترضوا بمثل هذا الاعتراض، وإنما كان المسيح هو الوحيد الذي قوبل به ولذلك مست الحاجة لدفع زعم اليهود والنصارى بان المسيح لم ير أية آية، فقال: كلا، بل آتيناه العديـــد مـــن الآيـــات البينات.

وكان اتهامهم الثاني أن روحا شيطانية تنـــزل على المـــسيح، فأبطلـــه الله تعـــالى بقوله:"وأيدناه بروح القدس". إن النصارى كما أبطلوا معجزة المـــسيح الوحيـــدة بقولهم إنه مات على الصليب ودخل القبر وهو ميت.. كذلك فإنهم أيدوا موقـــف اليهود في قولهم إن المسيح كان على صلة في الشيطان إذ قـــالوا في الإنجيـــل: إن الشيطان امتحنه (متى:٤). والحق أنه لا يمكن للشيطان أن يتجاسر على اختبار نبي، بل إنه لا يجرؤ على الاقتراب منه..ولكنهم مع ذلك ذكروا هذه الأشياء في الإنجيل وبالتالي ساندوا اليهود في موقفهم. وحيث إن الأنبياء الآخرين لم يتعرضوا لمثل هذه التهمة.. لذلك خص الله المسيح وحده بهذا التصريح، وبرأه من تهمة اليهود وقـــال "وأيدناه بروح القدس".

إلى هنا كنت أوضح سبب ذكر المسيح منفصلا للرد على موقف اليهود، أما الآن فأتناول الموضوع في ضوء موقف المسيحيين القائل إنه ذكر منفصلا عـــن بـــاقي الأنبياء لأنه أرفع منهم مكانة، بل هو إله أو ابن اله.

والجواب أولا – الأنبياء المذكورون في قوله"وقفينا من بعده بالرسل" ما كانت لهم أمة منفصلة في عهد الرسول ﷺ. فمثلا لم تكن لداود أمة خاصة، ولا لـــسليمان، ولا ليحيى، ولا لإلياس، ولا لزكريا، ولا لدانيال، ولا حزقيال عليهم السلام. فمـــا كان هناك أي داعٍ لذكر كل واحد منهم ذكرا منفصلا. ولكن عيسى كانت لـــه أمة منفصلة عن اليهود.. فكان من الضروري ذكره منفصلا.

وثانيا- إن أمة عيسى نزعت عنه رداءه الحقيقي وهو النبوة، وخلعوا عليـــه مـــن عندهم رداء البنوة لله تعالى، فكان لا بد من ذكره منفصلا لنـــزع هذا الـــرداء.. رداء الألوهية الكاذبة. أما باقي الرسل المبعوثين في بني إسرائيل من بعـــد موســـى فكانوا لا يفرقون بين أحد منهم، وإنما كانوا يعتبرونهم سواسية كأسنان المشط .. لذلك لم يذكر كل واحد منهم على حدة.

الواقع أن الله تعالى قد نزل هذه الآية لإبطال عقيدة النصارى في المسيح، موضـــحا لهم أن زعمهم بكونه إلها أو ابن إله جهل منهم.. إذ لم يكن إلا رســـولا مؤيـــدا بالبينات وروح القدس، وليس في هذا أية خصوصية له..لأن جميع الرسل بـــدون

استثناء قد أيدوا بالبينات طبقا للنظرية الإسلامية. كما أن النصوص القرآنية البينة والأحاديث النبوية الشريفة تصرح بإمكان نزول روح القدس حتى على غير الأنبياء. وإذن فكون المسيح قد أوتي البينات وأيد بروح القدس ليس بدليل على أنه نبي ذو شرع مستقل أو أنه إله أو ابن إله.

إن أول كلمة في الآية تبطل كونه أحد الأقانيم الثلاثة: حيث قال الله تعالى "وآتينا عيسى بن مريم البينات".. فهل يعطي أحد شيئا للإله؟ كلا، إنه في غنى عن كل شيء، وإنما هو الذي ينعم على الآخرين.

ثم إن كلمة البينات أيضًا تبطل عقيدة بنوة المسيح لله تعالى .. إذ لا يمكن أن يكون إلها من يحتاج لإثبات صدقه إلى بينات تعطى له من غيره. الأشياء في الدنيا على نوعين: مادية وغير مادية، والمادية تحصل بالسبب والمسبب، وتحتاج لإثبات وجودها إلى دليل خارجي. وأما غير المادية فليست بحاجة إلى سبب ومسبب ودليل خارجي، وإنما تشكل بنفسها دليلا على وجودها.. كما قيل بالفارسية: "آفتاب آمد دليلِ آفتاب".. أي الشمس نفسها دليل على وجودها. وحيث أن المسيح عليه السلام احتاج لإثبات صدقه إلى أدلة خارجية فثبت أنه مخلوق وليس بخالق، والمخلوق لا يمكن أن يكون إلها.

ثم إن قوله تعالى: "وأيدناه بروح القدس" أيضًا يوضح أن المسيح كان بحاجة إلى مساعدة الآخرين، ومن احتاج مساعدة من غيره كيف يكون إلها؟ إنما يحتاج إلى مساندة الآخرين الضعيف؛ ومن المستحيل أن يسمى الضعيف إلها أو ابن إله. فكلمة "أيدناه" تنفي وجود شيء كالألوهية في ذات المسيح، موضحة أن الله تعالى هو الذي زكى المسيح وقدسه، وبدونه فلم يكن المسيح إلا مجرد مضغة من اللحم.

وإذن فهذه الكلمات ليست دليلا على ألوهية المسيح.. وإنما هي ضربة قاضية على الزعم بألوهيته.

ويبين الله في قوله "أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم.. ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون" أن الأنبياء يبعثون عند انحراف الناس عن جادة الحق، ولذلك لا بد أن تكون تعاليمه بخلاف ما عند القوم من اتجاهات وآراء. ولكن من عادة

اليهود رفض كل ما يتنافى مع آرائهم.. ومن أجل ذلك عاملوا كل نبي باستكبار. وإذا كانوا قد كذبوا بعضهم باللسان فقد خططوا لقتل البعض الآخرين. فالله تعالى يذكر اليهود بشقاوتهم هذه ويقول: ما دمتم مصممين على الإنكار والرفض.. فكيف نصدق قولكم أنه لو بعث نبي من بني إسحاق لصدقناه؟ فقولكم هذا كذب صريح ولا شك.

وقوله تعالى "ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون" قد يعني أنه كذبتم بعضا منهم وقتلتم بعضهم كما استشهد سيدنا يحيى عليه السلام. ولكن حيث إن الله قد فرق بين صيغتي "كذبتم" و"تقتلون" لذلك قد يكون في هذه إشارة إلى محاولة اليهود لقتل النبي ﷺ. والمعنى: أما الأنبياء الصادقون فكذبتموهم وأما هذا النبي فتحاولون قتله أو قتاله. فتكون تقتلون بمعنى تقاتلون. ومهما يكن، فإنكم لم يتحسن حالكم ، بل زدتم سوءا، و لم تدخروا وسعا في معارضة رسل الله تعالى.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٩).

شرح الكلمات:

غُلف: جمع غِلاف وأغلف. وهو الذي لم يُختن بعد. ويقولون: قلب أغلف أي لا يعي شيئا وسيف أغلف: أي أنه في غلاف لا يمكن أن يدخل فيه شيء (الأقرب).

التفسير: إذا ما يفشل الإنسان في دحض حقيقة من الحقائق بالأدلة والبراهين، ولا ينوي قبولها.. فانه يتهرب منها ويتشبث بأعذار سخيفة. وتسوق هذه الآية عذرا من أعذار اليهود السخيفة.. حاولوا به التهرب من قبول الإسلام. وفي هذا الزمن أيضًا يحاول المتعندون اللجوء إلى مثل هذه المعاذير تهربا من قبول الحقائق التي بعث بها سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود إلى العالم.

إذا اعتبرنا كلمة 'غلف' جمع 'غلاف'.. كان مرادهم من قولهم "قلوبنا غلف أن الله تعالى قد غطى قلوبنا كما تغطى الأشياء النفيسة الثمينة بغلاف يحفظها كي لا تتسخ.. فلا تظنوا أننا سنتأثر من كلامكم. كأنهم يقولون: ماذا تظنون بنا؟ إننا

أصحاب قلوب طاهرة مبرأة من كل دنس، فلم نتأثر من كلامكم السخيف، ولقد جعلنا الله في مأمن من تأثيراتكم النجسة.

ولو اعتبرنا كلمة 'غلف' جمع 'أغلف' وهو الذي لا يفهم شيئا.. كان المراد من قولهم "قلوبنا غلف" أنهم حينما يعرض عليهم المسلمون الأدلة والبراهين فإنهم يتهربون منهم قائلين: قد يكون صحيحا ما تقولونه، ولكننا قوم جاهلون فلا نقدر على فهمه. فيعني بعضهم بهذا القول أننا لا نريد أن نتناقش معكم، فاذهبوا إلى علمائنا تناقشوا معهم واتركونا. بينما يكون هذا القول من بعضهم على سبيل السخرية، أو بتعبير آخر: نحن لا نفهم هذه الأمور مع أننا ذوو عقل وفهم، فكيف يمكن أن تفهموها أنتم؟ أو أنكم تظنون بنا أن الله قد عاقبنا فجعل قلوبنا في غطاء، فلماذا تأتوننا بعد ذلك وتشرحون لنا هذه الأمور ؟

وإذا اعتبرنا 'غلف' بمعنى 'كنوز العلم'.. فالمراد أن قلوبنا كنوز العلم ولسنا بحاجة إلى معارف جديدة.

وقد يعني قولهم "قلوبنا غلف" أن قلوبنا نجسة. وهذا يعني أنهم عندما يعجزون عن الجواب يتهربون قائلين: نحن قوم نَجَس، فاتركونا وشأننا وناقشوا أحدا غيرنا. ذلك بالرغم من أن هدى الله لا ينزل إلا ليهتدي به الذين هم نَجس.

وقد يكون قولهم هذا نفورا من المسلمين، بمعنى: لماذا تنصحوننا ما دمتم تروننا نجسا غير طاهرين.

"بل لعنهم الله" يقول الله سبحانه وتعالى: سواء أكان قولهم 'قلوبنا غلف' تهربا من النقاش، أو سخرية بالمسلمين، أو تفاخرا بما لديهم من علم.. فإن لعنة الله قد صُبَّت عليهم فعلا، وهي التي سببت حرمانهم من قبول الحق.

وكلمة"بكفرهم" تبين أن نزول اللعنة عليهم يرجع إلى كفرهم برسل الله ومعارضتهم إياهم.. فما هم بأغبياء حتى لا يفقهوا قولكم، ولا هم عقلاء جدا حتى يستغنوا عن أي نصح وإرشاد؛ وإنما السبب الحقيقي هو أن الله تعالى قد لعنهم، مما جعلهم الآن يصرون على إنكار تعاليم الإسلام رغم كونها أفضل من التعاليم الأخرى، وتقبَلُها الفطرة الإنسانية ويطمئن إليها العقل السليم.

كما أن قوله " لعنهم الله بكفرهم " يكشف عن حقيقة.. هي أن الله تعالى لا يلعن أحدًا دونما سبب، وإنما السبب الحقيقي لذلك هو كفرهم وإلا فإن الله الـرؤوف الرحيم بعباده لا يحرمهم من حبه ورحمته. إنه -تعالى- لا يسد أبـواب قربـه في وجوههم إلا إذا أغلقوا بأيديهم أبواب رحمته لهم.

ويمكن أن يفهم قوله تعالى" فقليلا ما يؤمنون" بطريقتين: أولا- أنهم يؤمنون إيمانًـا قليلا ناقصا، بمعنى أنهم يؤمنون ببعض الأمور ويكفرون ببعض.. كمـا سـبق أن حكى الله عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

وثانيا-أنهم لا يؤمنون أصلا.. لأن لفظة 'قليلا' تأتى للنفي أيضًا.. فقـد كتـب العلامة أبو البقاء أنه يمكن اعتبار 'ما' نافية، والتقدير أنهم لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا (إملاء ما من به الرحمن)،أي أنهم محرومون من الإيمان كل الحرمان.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَـسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَـى الْكَـافِرِينَ (٩٠)

شرح الكلمات:

يستفتحون- استفتح فلان: طلب الفتح واستنصر. استفتح الباب: فتحه (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى "مصدق لما معهم ".. التصديق على نوعين: الأول- كقولنـا مثلا: زيد صادق، بمعنى أنه لا يمكن أن نعزوه إلى الكذب، والثاني-مثلا يقول زيد إن بكرًا سوف يحضر.. فيحضر بكر؛ فقد صدَّق بكر زيدا.. حيث حقّق ما قال. وهنا لا يعني قوله"مصدق لما معه" أن القرآن الكريم يصدق ويقبل كل مـا ورد في التوراة، وإنما يعني فقط أنه حقق بنـزوله نبوءات التوراة الواردة في شأنه وشـأن النبي الكريم ﷺ.

ولإقامة الحجة على اليهود.. بين الله هنا أن القرآن هو ذلك الكتاب الذي تنبـأت بظهوره كتب اليهود، ولو لم ينـزل القرآن للزم تكذيب نبوءات التوراة، ولكـن

جاء فصدقها. فإذا كانوا حقا مؤمنين صادقي الإيمان بكتبهم .. لوجب عليهم تصديق القرآن حتى يتم تصديقهم الفعلي بالتوراة.

وقوله تعالى "وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا" يمكن تفسيره على وجهين: الأول- أنهم كانوا يعيشون تحت سلطة الكفار، فكانوا يدعون الله أن ينصرهم عليهم: ربنا، ابعث النبي الموعود، وهيئ الأسباب لانتصارنا عليهم.

والثاني- أنهم كانوا لا يزالون يكنون لكتبهم حبا واحتراما، ولذلك كانوا يفتحون على الكفار أبواب النبوءات الواردة في كتبهم، ويخبرونهم أن الله قد وعدنا بنبي صفته كذا وكذا، وعندما يبعث سنتغلب على الكفار جميعا(السيرة النبوية لابن هشام، إنذار اليهود برسول الله)

وهذا ما حدا بأهل (يثرب) المدينة المنورة إلى تصديق النبي ﷺ. فلقد هاجرت إلى يثرب قبائل يهودية واستوطنوها لأنهم علموا من آباءهم أن النبي الموعود سوف يبعث فيها أو في ضواحيها. وكانوا يذكرون هذه الأنباء لأهل يثرب ويخبرونهم أن الله سوف يبعث فينا نبيا يمحو به الكفر، ويظهر الدين الحق على غيره من الأديان. وفي بعض الأعوام ذهب سكان المدينة إلى مكة المكرمة للحج.. فسمعوا أن أحد أهلها يدعي النبوة، فتشاوروا فيما بينهم وقالوا: يقول اليهود أن نبيا سوف يبعث، ومن لم يصدقه يهلك، واليهود قوم أذكياء، ذوو مال وقوة ..عسى أن يؤمنوا به فيتغلبوا علينا، فتعالوا نؤمن به وننج من الهلاك. وعندما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بدعوة النبي ﷺ فآمنوا به كلهم تقريبا (المرجع السابق، بدء إسلام الأنصار).

ولكن اليهود بدءوا يسمون المؤمنون به ﷺ كفارا، مع أنهم كانوا من قبل يأتونهم بكتبهم ويقرؤون عليهم النبوءات المتعلقة ببعثة نبي موعود، ويتباهون أمامهم أننا سوف نسوي حسابنا معكم عندما يبعث هذا النبي الموعود. فلما جاءهم النبي كفروا به، وجعلوا يؤولون هذه الأنباء.

وهذا هو واقع المسلمين اليوم. كانوا ينتظرون المسيح والمهدي الموعود ليأتي ويحقق انتصارهم على الكفار، فلما جاءهم بدءوا يؤولون أنباء مجيئه ويقولون: ليس هناك أي نبأ كهذا.. إن هي إلا أفكار خاطئة تسربت إلينا من المجوس.

قوله تعالى: "فلعنة الله على الكافرين" يمكن أن يكون قولا عاما، ولكنه عندي خاص بهؤلاء الكفار الذين كانوا قبل بعث النبي ﷺ يبتهلون إلى الله تعالى أن يبعث رسوله الذي يظهر دينه على الأديان الباطلة كلها، ولما جاءهم ورأوا بالآيات أن الحق بدأ يغلب الباطل، وأن غلبته الكاملة وشيكة ..كفروا به. فكفرهم به –برغم رؤية الحق واضحا، وبعد قيام الحجة عليهم وبعد ابتهالاتهم –إنما يدل على أن لعنة الله قد حلت بهم، وإلا كيف يمكن أن يكفروا بالحق الذي حصحص وتبين هكذا من دون أي مبرر؟

الواقع أننا حين ننظر إلى العرب –الذين كانوا يحسبون موسى وغيره من أنبياء إسرائيل كذابين مفترين- كيف بدءوا –بسبب إيمانهم بالنبي ﷺ- يحبونهم ويحترمونهم كالصادقين..حينما نرى هذا نتعجب من سلوك اليهود مع النبي ﷺ فماذا أصابهم حتى سبقوا كفار العرب في عداوتهم وإيذائهم لهذا المحسن إليهم ؟

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ. (٩١)

شرح الكلمات:

اشترى- يأتي بمعنى الشراء والبيع كلاهما (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى "بئسما اشتروا به أنفسهم" يتضمن موضوعا واسعا جدا، وهاك بيانه بإيجاز. يتبين من القرآن الكريم أن إيمان العبد بربه عز وجل صفقة تتم بينهما بحسب قوله تعالى:" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" (التوبة: ١١١).. ولا ينال العبد الجنة إلا بعد مماته، لذا لابد -كما يحدث في المعاملات المالية-من تقديم 'الإيصال' أو الصك كمستند يدل على حصول هذه الصفقة. وقد آتى الله هذا الصك للعبد في قوله "يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي.وادخلي جنتي"(الفجر:٢٨-٣١). وكان

رضوان الله عن العبد، ورضا العبد عن ربه في الدنيا..هو الصك، لأن التراضي بين البائع والمشتري هو الدليل على صحة أي صفقة. وكان مقام العبودية المذكور في قوله تعالى(فادخلي في عبادي).هو تلك 'التذكرة' التي يدخل بها المؤمن جنة الله.

وأيضًا قال الله" فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام "(الأنعام:١٢٦).. أي من يرد أن يكتب له النجاح ويدخله الجنة يشرح صدره لقبول الإسلام. والإسلام يرادف الإيمان هنا.. فكان انشراح الصدر أيضًا 'تذكرة' لدخول الجنة. والحق أن العبودية وانشراح الصدر شيء واحد، لأن التعبد يعني التذلل والانقياد وقبول نقش الآخر. والعبد الكامل من يقبل نقش الله، وهذا هو معنى انشراح الصدر أيضًا.

وإذن، فمن المتحقق أن المؤمن يعقد صفقة الإيمان بالله، ومن جانبه يسلم إليه كل ماله ونفسه فيؤتيه الله الجنة مقابل ذلك. وحيث إنه لا يحصل على الجنة إلا بعد الممات، لهذا يعطى في هذه الدنيا بطاقة دخولها وكيف يعرف أنه سوف يدخلها أم لا؟ البطاقة الدالة على الدخول هي انشراح الصدر للإسلام والعبودية. وهنا قد يتساءل بعضهم: ما هو طريق فسخ هذه الصفقة لمن أراد ذلك ؟ والجواب أن الله تعالى سوف يقول له رد إلي تذكرة الجنة وخذ مالك.

إن قوم موسى عندما آمنوا بالله تمت صفقتهم مع الله وحصلوا على بطاقة دخول الجنة. وكذلك تمت هذه الصفقة بين الله وأتباع عيسى عندما آمنوا به وكان الشعبان مؤمنين في زمنهما. وكذلك فعل المسلمون وعقدوا مع الله الصفقة وأتاهم بطاقة الجنة. ولكن اليهود لحماقتهم فسخوا هذه الصفقة وردوا بطاقة الجنة التي أعطاهم الله إياها. ردوا الإيمان والإسلام، واستردوا أموالهم وأنفسهم، فقال الله تعالى " بئسما اشتروا به أنفسهم ". الصفقة الأولى كانت صفقة مباركة، ولكن الثانية خاسرة ومهلكة جدا. لقد كان ما أتاهم في الصفقة الأولى خيرا مما أخذ منهم.

فما هو السبب في فسخ صفقتهم يا ترى ؟ تفسخ الصفقات لسببين: إما أن يكون المال المأخوذ أسوأ من المدفوع، أو يكون الثمن المدفوع أكثر من القيمة الحقيقية للبضاعة المشتراة. والآن، إذا بحثنا عن سبب فسخ اليهود بيعهم مع الله تعالى..

وجدنا أنه ليس ثمة سبب من هذين السببين وراء فسخهم البيع، وإنما فعلوا ذلك بغيا وشرا، حيث قالوا: لماذا أعطى الله الآخرين من هذه البضاعة؟ فما أدل قولهم هذا على حمقهم وغبائهم! هل يجوز لأحد أن يعترض على تاجر ويقول له: لماذا تتاجر مع أحد سواي؟

وقد ذكر الحديث هذا التفكير اليهودي الخاطئ، حيث ضرب النبي ﷺ مثلهم كمثل الذي استأجر عمالا.. فعمل بعضهم من الصبح إلى الظهر، وبعضهم من الظهر إلى العصر، وبعضهم من العصر إلى المغرب.. و أعطى الجميع أجرة متساوية. فقال الذين عملوا من الصباح إلى الظهر أو من الظهر إلى العصر لصاحب العمل: إن الذين عملوا ما بين العصر والمغرب لم يبذلوا مثل جهدنا، ومع ذلك أعطيتهم مثل أجرنا، هذا ليس عدلا! فقال: أنا حر في ذلك. ما انتقصت حقكم، فعلام تعترضون؟ وقال النبي ﷺ إن هذا هو حال اليهود والنصارى والمسلمين.(البخاري، مواقيت الصلاة) فما أن رأى اليهود والنصارى أن الله تعالى قد تفضل على المسلمين بالنعم التي أوتوها من قبل.. قالوا حسدا وغيظا: لماذا أوتي المسلمون هذه النعم مع أنهم جاءوا بعدنا؟ ولماذا نالوا الجنة التي كان من المفروض أن ننالها وحدنا؟ بل وفتح أبواب النجاة والجنة لكل أمة تدين بدينهم. وتبين الآية أنهم هكذا جلبوا على أنفسهم غضبا مضاعفا.. حيث رفضوا الإسلام وآثروا الكفر وحرموا من الإيمان من ناحية، ومن ناحية أخرى ماتوا حسدا وكمدا. وكأنهم فسخوا البيع بغيا وحسدا، صارفين النظر عن مصلحتهم.

وباعتبار" اشتروا" بمعنى باعوا.. يكون" بيع النفس لشيء" بمعنى الانهماك فيه.

ويكون المراد من قوله تعالى "بئسما اشتروا به أنفسهم" أنهم انهمكوا في الكفر بشكل خطير، وكل ذلك حسدا على نيل المسلمين النبوة.

قوله تعالى "فباءوا بغضب على غضب" يبين أن الله صبّ على اليهود غضبه صبا متواليا كأنما صار الغضب خاصا بهم. فقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ لما سئل عن " المغضوب عليهم" المذكورين في سورة الفاتحة قال: هم اليهود"الترمذي ومسند أحمد ".. ذلك لأنهم عارضوا الأنبياء باستمرار، فنزل عليهم الغضب باستمرار.

وكلمة"غضب على غضب" تشير إلى غضب مضاعف، حيث إنهم جعلوا غضب الله عليهم المرة الأولى بكفرهم بالمسيح الناصري، والمرة الثانية بإنكارهم النبي ﷺ.

ويبين قوله تعالى" وللكفرين عذاب مهين" أن لا بد أن يكون مصير الحاسدين الخزي والهوان. فمعارضة الإنسان لدين ما بنية صالحة شيء وارد، أما اليهود فقد عرفوا صدق النبي ﷺ بناء على النبوءات الواردة في كتبهم، ومع ذلك أصروا على إنكاره. والذي يكفر بالحق متعمدا فلا بد أن يلقى الخزي والهوان، بل لو آمن فيما بعد فلا مفر له من أن يخزيه الناس ويعيروه بأنه آمن وقد كان يكفر من قبل.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمنوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٢).

التفسير: هنا يؤكد الله تعالى أن سبب كفر اليهود هو غضبهم لأنه أرسل رسوله من غيرهم، فإذا قيل لهم آمنوا بما نزل في القرآن الكريم قالوا: لا نؤمن إلا بما نزل علينا. وهم كاذبون في قولهم هذا، لأنهم لو كانوا صادقين في إيمانهم بكتاب موسى عليه السلام ما رفضوا النبوءات الواردة في كتبهم بشأن النبي ﷺ. فإنكارهم لنبوءات كتبهم دليل قاطع على أنهم كاذبون في دعواهم "نؤمن بما أنزل علينا ". لو كانوا أمناء لفكروا أنهم بكفرهم بالنبي ﷺ قد أساءوا إلى دينهم هم، لأن كتبهم تنبئ بمجيء نبي جديد وكتاب جديد، وأن علامات ذلك الرسول وذلك الكتاب تنطبق حرفيا وتماما على النبي الكريم ﷺ وعلى القرآن المجيد. وإذا فليس كفرهم إلا

كفرا بكتبهم، وسلوكهم يبين أن تلك العلامات المذكورة علامات باطلة عندهم، ويمكن أن توجد أيضًا في مدع كذاب، أو أن الشيطان أيضًا-والعياذ بالله- يظهر الناس على الغيب، وأنه ذكر للأنبياء السابقين في شأن ظهور ذلك النبي الموعود علامات يمكن تحققها في الكذابين أيضًا.

ومن قولهم: نؤمن بما أنزل علينا" يستنبط أيضا أن الله عندما يتكرم على أحد بنعمة يتمتع بها كل القوم.. فكأنه تكرم بها على القوم جميعا. فنرى أن التوراة لم تنزل على اليهود، بل على موسى عليه السلام، ولكنهم يقولون:"ما أنزل علينا".. ذلك لأن اليهود كلهم استفادوا منها كشعب.

وللأسف الشديد أن المسلمين اليوم يقولون: لماذا نقبل الإمام المهدي والمسيح الموعود.. بعد إيماننا بالقرآن؟ فكأنهم قد أصبحوا مصداقا لقول " نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه".

ويعني قوله "وهو الحق مصدقا لما معهم" أن ما أنزلنا على هذا النبي (القرآن الكريم) حقيقة أبدية لن تزول، بل لا بد أن تتحقق. هذا لأن الكلمات التي تعبر عن الصدق في العربية كلها تتضمن معنى الدوام. فقوله هو الحق يبين أنه حقيقة أبدية لا مناص من تحققها.. فما الذي يجديكم إنكارها؟ لماذا لا تؤمنون بها الآن؟

الحق أن النبوءات الواردة في التوراة في شأن النبي الكريم ﷺ قد تحققت كلها بالقرآن الكريم، وبوجوده ثبت صدقها. ويحاول المسيحيون تطبيق بعض هذه النبوءات على المسيح الناصري، ولكن العلامات المذكورة فيها تبين خطأهم. فالنبوءة الأولى وردت في سفر التثنية، وهي من الوضوح والجلاء بحيث يتعذر تطبيقها على المسيح بأي صورة. تذكر التوراة أنه عندما ذهب موسى ببني إسرائيل إلى جانب الطور طفق البرق يلمع في السماء في صورة مستمرة، وصاحبه أصوات شديدة فخاف بنو إسرائيل وقالوا لموسى: "اذهب أنت وتكلم مع الرب، أما نحن فلا نريد سماعه ولا نسمعه أولادنا". فقال الله تعالى لموسى عليه السلام: "قل لهم إني سمعت كلامهم، وسوف أعاملهم حسبما يريدون"..أي لن أبعث فيهم بعد ذلك نبيا صاحب شريعة، بل سوف أبعثه من بين إخوانهم(تثنية١٨ ،١٧-١٩).

ومن المستحيل أن ينطبق هذا النبأ على المسيح الناصري عليه السلام، إذ لو حاولنا ذلك لوجب أن نسلم بأنه مثيل موسى عليه السلام، وهذا خطأ..لأن موسى نبي ذو شرع جديد، بينما عيسى ليس له شرع جديد؛ والدليل على ذلك قوله: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم.. إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل "(متى٥: ١٧ ،١٨).

ولو سلمنا جدلا أن المسيح نبي ذو شرع جديد لما كان أيضًا مثيلا لموسى، لأنه- حسب عقيدتهم- اعتبر الشريعة لعنة، وهو بنفسه صار ملعونا- معاذ الله!

ثم إن النبوءة الواردة في سفر التثنية تقول إن النبي الموعود سوف يبعث من بين إخوتك، ولكن الإنجيل يقول إن المسيح من نسل داود. ولو طبقنا النبوءة على المسيح لوجب أن نقول إنه ليس من نسل داود، ويكون بوسع المسلمين أن يخطئوا إنجيلهم. والتاريخ أيضًا يؤكد أنه عليه السلام كان من بني إسرائيل وليس من بني إسماعيل إخوة بني إسرائيل، فليس بنو إسرائيل مصداقا لنبأ "من إخوتك"وإنما إخوتهم بنو إسماعيل.

وأيضًا لو كان المسيح هو المراد من النبوءة.. للزم أن يعلن أنه هو مصداقها، ويدعي أنه مثيل موسى. ولكن الإنجيل لا يذكر أبدا أن عيسى قد ادعى بمثل هذه الدعوى.. في حين أن القرآن أعلن أن محمدا ﷺ هو مثيل موسى حيث قال:"إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا" (المزمل:١٦).

وذكر مثيل موسى هذا في قوله تعالى: "قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم. إن الله لا يهدي القوم الظالمين "(الأحقاف:١١).. أي قل: يا من لا تتدبرون القرآن، أخبروني؛ إذا كان هذا الكلام من عند الله وكفرتم به من دون تدبر.. فماذا تكون النتيجة، مع أن شاهدا من بني إسرائيل —وهو موسى- قد شهد على مثيل له، فآمن هو، ولكنكم استكبرتم؟ ألا فاعلموا أن الله لا يهدي القوم الظالمين طريق الفلاح.

تشير هذه الآية القرآنية إلى نفس نبوءة موسى الواردة في التثنية ١٨، وقد ذكرها القرآن هنا تدليلا على صدق النبي ﷺ، وبين أنه مثيل لموسى. ولكن عيسى لم يقل أبدا بكونه مثيلا لموسى، بل إنه أنكر كونه مثيلا له حيث جاء: فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكي تأتى أوقات الفرج من الرب. ويرسل يسوع المسيح المبشَّر به لكم من قبل. الذي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر. فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل من يكلمكم به. ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب. وجميع الأنبياء أيضًا من صموئيل فما بعده جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبئوا بهذه الأيام. أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلا لإبراهيم وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض. إليكم أولا إذ أقام الله فتاه يسوع أرسله يباركك برد كل واحد عن شروره (أعمال٣:١٩-٢٦).

يتضح من هذا أنه لن يأتي يسوع المسيح مرة ثانية ما لم تتحقق جميع النبوءات التي تنبأ بها موسى. كما أن كلمات: ويرسل المسيح المبشر لكم قبل الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسيين منذ الدهر، فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم .. هذه الكلمات تؤكد أن مثيل موسى كان ليبعث بعد البعث الأول للمسيح وقبل نزوله ثانية. وقد بعث المسيح أولا قبل مبعث مثيل موسى، ولن ينزل مرة ثانية ما لم يتحقق كل ما تنبأ به موسى في شأن مثيل له.

كذلك ورد في سفر الثنية بلسان موسى: فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قدوسي،[٢]* وعن يمينه نار شريعة لهم (تثنية٣٣:٢).

وتشمل هذه النبوءة التوراتية عدة علامات تختص بالنبي الموعود وهي:

أولا-أنه تلألأ عليهم من جبل فاران. ويقع هذا الجبل في منطقة مكة المكرمة.

ثانيا-أنه يأتي مع عشرة آلاف قدوسي. وهو إشارة إلى حادث فتح مكة حيث كان مع النبي ﷺ عشرة آلاف صحابي، ولم يجتمع هذا العدد الكبير مع أي نبي في مكان واحد. ويدل على كون الصحابة قدوسين قول الله تعالى"رضي الله عنهم ورضوا عنه"(التوبة:١٠٠).. في حين أنه لم يتجاوز عدد حواريي المسيح الناصري اثني عشر، ورغم ذلك العدد القليل فإن أحدهم باع المسيح بثلاثين دينارا وساعد أعداه في القبض عليه(متى٢٦:٤-١٦).

أما أصحاب النبي ﷺ فكانوا من الوفاء والفداء بحيث إنهم لم يخذلوه أبدا حتى في أحلك الظروف، بل دافعوا عنه بأرواحهم.

ثالثا-أن يكون في يمينه نار شريعة. ولو اعتبر المسيح مثيل موسى للزم بطلان هذه النبوءة.. لكون المسيح لم يأت بشرع جديد.

وقد سمي الشرع القرآني هنا"نار شريعة".. لأن في النار فائدتين: الإحراق والإنارة. فالماء الحار أو الحديد الحار يمكن أن يحرق ولكن لا ينير، أما النار فتحرق وتضيء أيضًا. فكان في تسمية القرآن "نار شريعة " إشارة إلى كونه نارا ونورا. فهو نار لأنه يحرق كل السيئات والمفاسد، وهو نور يستنير به الخلق. فهذه النبوءة تنطبق على النبي ﷺ الذي كان في رفقة عشرة آلاف صحابي يوم فتح مكة، وهو وحده الذي جاء بشرع جديد بعد موسى.

---

[٢] حرفوا هذه الكلمات في بعض الطبعات الجديدة خاصة العربية، ولكنها موجودة في الطبعة الأردية British And Foreign Bible Society لاهور ١٩٠٨ و١٩٢٢. وفي الطبعة الإنجليزية " Oxford Univ. Press London New york , Toronto "و هناك صورة لها في آخر الكتاب

وهناك علاوة على هاتين النبوءتين –أنباء أخر ى أيضًا تصدق تماما على النبي ﷺ، وقد وردت في الأسفار التالية: اشعيا٨:١٤ –١٦ ،١٣:٩–١٧ ،٩:٢٨–١٣ ،٣:٣٥–٨ ،٩:٤٠–١٢ ،٩:٤٢–١٣ ،٥:٤٩–٩ ،٢:٦٢–٤، نشيد الإنشاد ٥:١٠–١٦،متى ٢١:٤٢، ٤٤.ودانيال٧.

فخلاصة القول أن الله تعالى يبين أن تعليم القرآن صدق وحق من ناحية، والإيمان به تصديق لنبوءات الكتب السابقة، وكفر أهل الكتاب به يؤدي إلى كفرهم بكثير مما ورد في كتبهم.

لقد قدم الله في هذه الآية ثلاثة أدلة على صدق هذا التعليم القرآني:

أولا–أن الله تعالى هو الذي أنزله

ثانيا–لا يمكن للعالم مقاومته، بل لا بد أن ينتشر ويسود الدنيا.

ثالثا– أنه يصدق ويحقق ما ورد في كتبكم من نبوءات في شأن النبي الموعود وكتابه، ولئن كفرتم به كفرتم بكتبكم أيضًا ولن تعودوا مؤمنين بها.

ولكن انظروا كيف أن اليهود كانوا ينتظرون النبي الموعود حتى أنهم كانوا يسمون أولاد هم باسم محمد، رجاء أن يبعث النبي الموعود فيهم (أسد الغابة، ذكر محمد بن أحيحة). ولكن لما بعث النبي الموعود كفروا به قائلين: كيف يمكن أن يبعث من بين بني إسماعيل..وكان المفروض أن يأتي ويزيدنا نحن قوة وشوكة؟ وقال النصارى: بل المراد به قوة الكنيسة. وهكذا جعلوا يؤولون نبأ مجيئه بتأويلات سخيفة شتى، مع أنهم لو آمنوا بالرسول ﷺ لازدادوا قوة ونجوا من الدمار.

وفي قوله تعالى "فلم تقتلون أنبياء الله من قبل" تأنيب لليهود بأنكم لو كنتم حقا صادقين في قولكم بأنه لو بعث النبي من بيننا لآمنا به، فلماذا لم تؤمنوا بالأنبياء الذين بعثوا من بينكم، بل عارضتموهم وحاولتم قتلهم. فلا شك أنكم تكذبون. والحقيقة أن المرء يكفر بالحق لفساد إيمانه، وهذا هو السبب لكفركم بهذا الكلام، إذ يدل سلوككم أنكم دائما وأبدا عارضتم وعاديتم الرسل. وقد أشار المسيح الناصري عليه السلام إلى هذه العادة القديمة في اليهود فقال: "يا أورشليم يا قَتَلَة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها"(متى ٢٣:٣٧).

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٣)

التفسير: كان قوله تعالى"فلم تقتلون أنبياء الله من قبل "ردا وجيزا على قول اليهود: لو كان هذا النبي من بني إسرائيل لآمنا به. والآن بدأ يرد عليهم مفصلا بأنكم تدعون الإيمان بموسى عليه السلام، وقد رأيتم معه البينات والبراهين الواضحة، ومع ذلك لما ذهب إلى الطور ليتلقى البركة اتخذتم عجلا أشركتموه في العبادة مع الله تعالى.. فكيف تدعون أنه لو كان هذا النبي من بني إسرائيل لصدقناه؟ وما دمتم قد عاملتم ذلك النبي الذي تتفاخرون به هذه المعاملة السيئة..فكيف يصدق قولكم لو كان هذا النبي من بني إسرائيل لآمنا به؟

هنا أيضًا ذكر الله أن موسى قد جاء بالبينات كما ذكر من قبل أنه تعالى أتى عيسى البينات، ورغم ذلك يستدل المسيحيون بكلمتين "البينات والمعجزات" على ألوهية المسيح وبنوته. ولو كانوا مصيبين في استدلالهم.. فلماذا لا يؤمنون بألوهية موسى أيضًا؟.. وهذا يكشف أنهم مخطئون في استدلالهم هذا.

قوله "وأنتم ظالمون" إن غصب الحقوق (أي الظلم) على نوعين: غصب حقوق الله تعالى، وغصب حقوق العباد. ولقد نبه الله اليهود بقوله "وأنتم ظالمون" إلى غصبهم حقوق الله.. أي أنكم مشركون حيث تعتدون على حقوقي. علما بأن الظالم يعني أيضًا المشرك.. لأن الظلم لغويا يعني وضع الشيء في غير محله، وحيث إن المشرك يعزو صفات الله تعالى إلى غيره لذا يسمى ظالما.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٤).

شرح الكلمات:

اسمعوا- سمع له: أطاعه. وأصل اسمعوا هنا: اسمعوا له، فحذفت له والمعنى: أطيعوه، لأن مجرد السماع بعد اتخاذ العهد والميثاق لا يعني شيئا.

أشربوا- الإشراب مخالطة المائع الجامد، وتوسع فيه حتى صار في اللونين، وقالوا: وأُشْرِبتُ البياضَ حمرةً أي خلطته بالحمرة [البحر المحيط]. وأُشرب فلان حب فلان: استولى حبه على قلبه. يقول الشاعر:

إذا ما القلب أشرب حب شيء فلا تأمل له عنه انصرافا

معنا"اشربوا في قلوبهم العجل" أن حبه استولى على كل ذرة من كيانهم.

التفسير: لقد بين الله هنا مثالا آخر لإخلاف اليهود العهد، حيث يقول: تذكروا حينما أُخذ منكم عهد في زمن موسى، وتم ذلك في مكان مقدس بجانب الطور، ولكنكم أخلفتموه، و لم تكترثوا لحرمة المكان وقداسته. الحق أن العهد الذي يتم في مكان مقدس يتفوق على غيره من العهود أهمية وحرمة، حتى أن القرآن الكريم أيضًا يأمر بأخذ بعض الإيمان المعينة بعد أداء الصلاة (المائدة:١٠٧).. ذلك لأن القلوب في ذلك الوقت تكون عامرة بخشية الله وخوفه.

أما ذلك العهد الذي أخذ من بني إسرائيل فقد بينه وقال: "خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ".. أي أطيعوا، ولكنهم بدلا من الطاعة قالوا: " سمعنا وعصينا".. أي لقد سمعنا ما قلت ولكننا لن نطيعك.

ويمكن أنهم لم ينطقوا بقول 'سمعنا وعصينا'، وإنما عبر بهذه الكلمات عن عصيانهم العملي: أي أن حالتهم الروحية ساءت لدرجة أنهم ما كانوا يسمعون أمر الله وكانوا يعصونه. فكلمة (قال) قد ترد مجازا للتعبير عن حال الشيء، كما قال الشاعر"امتلأ الحوض وقال قطني "أي بلسان حاله قال: لم يبق فيَّ مكان فارغ.

وقد يكون المراد أنهم قالوا الكلمتين في وقت واحد.. ذلك أن الإنسان يجيب بطريقتين: باللسان أو بالقلب، فقالوا سمعنا بأفواههم، بينما كانت قلوبهم لا تنفك مصرة على رفض هذه الأوامر قائلة: وعصينا.

أما مسألة إشراب العجل في قلوبهم فقد تمت على النحو التالي بحسب التوراة: فقال لهم هارون: "انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وآتوا بها إلى هارون.

فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه. ونادى هارون وقال: غدا عيد للرب "(سفر خروج ٣٢:٢-٥).

والمراد من إشراب العجل في القلوب إشراب حب العجل فيها.. أي استيلاء حبه عليها، ذلك لأن الذهب لا يشرب.

ويرد الله على اليهود بقوله "قل بئسما يأمركم به إيمانكم "..أي إن كنتم حقا مؤمنين صادقي الإيمان فكيف سوغ لكم إيمانكم الشرك في غياب موسى لعدة أيام؟ فالكفر أحسن من إيمان كهذا.

وقد اختار الإمام المهدي والمسيح الموعود هذا الأسلوب القرآني في بيت من الشعر بالفارسية فقال:

بعد از خدا بعشقِ محمد مخمّرم گر کفر ایں بود بخدا سخت کافرم

أي: إني نشوان بعد عشق الله تعالى بعشق محمد ﷺ.. فإذا كان هذا كفرا فوالله إني كافر أشد الكفر (إزالة أوهام ص١٨١).

فالله تعالى يقول: إن كنتم تدعون بالإيمان فإن إيمانكم هذا يأمركم بأمور سيئة للغاية، حيث كنتم ولا زلتم تكفرون بالأنبياء. وسواء كان ذلك باللسان أو بالفعل فإنه لا يأتي بخير أبدا فكيف تدعون بالإيمان مع كل هذا؟ الأحسن أن تسموا إيمانكم هذا كفرا، لأن الإيمان ومعارضة الأنبياء ضدان لا يجتمعان.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٥).

التفسير: إن كل أمة تدعي بحصر النبوة فيها لا بد أن تحدد دائرة النجاة أيضًا. ولما كان اليهود يزعمون بكل شدة وقوة أن النبوة منحصرة في بني إسرائيل، لذا ظنوا أنهم وحدهم يحظون بنعم الله تعالى وينجون من عذابه في الآخرة، ولن تكتب النجاة لأمة سواهم. وهذا الزعم في بادئ الرأي أمر بسيط، ولكن نتائجه خطيرة

بالغة الخطورة. وللأسف أنه لم يفطن لهذه الحقيقة قبل القرآن. إنه أمر سخيف يرفضه العقل تماما. ثم لم يكن اليهود وحدهم أصحاب هذا الزعم، بل كانت هناك أمم أخرى تزعم مثل زعمهم. فالهندوس مثلا يحصرون النجاة فيهم دون سواهم. والمسيحيون –مع أنهم بدءوا اليوم يدعون عامة الناس إلى دينهم، ويقولون بأن كل من آمن بكفارة المسيح نجا من النار– ولكنهم أيضًا كانوا قبل بعث المسيح الناصري يقصرون النجاة عليهم وحدهم.

ودعوتهم الناس إلى دينهم اليوم أيضًا ليست موافقة لتعليم المسيح نفسه فقد قال:"لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة "(متى ١٥:٢٤). ولما جاءته امرأة كنعانية غير إسرائيلية تستهديه قال لها في صرامة: "ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب "(متى ١٥:٢٦).

ثم إن الحواريين أيضًا لم يجيزوا دعوة الأمم الأخرى إلى أناجيلهم، فقد قيل:"أما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس فاجتازوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكيا وهم لا يكلمون أحدا بالكلمة إلا اليهود فقط"(أعمال الرسل ١١:١٩).

وعندما سمع الحواريون أن بطرس دعا غير الإسرائيليين في بعض الأماكن إلى المسيحية غضبوا جدا. وعند رجوعه إلى أورشليم خاصمه أهل الختان (أي بنو إسرائيل) قائلين:"إنك دخلت إلى رجال غير مختونين وأكلت معهم "(أعمال الرسل١١،٢:١).

إذن، فالأناجيل تمنع من دعوة عامة الناس إلى المسيحية. ولما كانت المسيحية محدودة في أمة معينة، فلا بد أن تكون النجاة عندهم محصورة فيمن يؤمن بالمسيح. ولكن الإسلام يرفض بشدة الزعم بأن باب النجاة خاص بأمة معينة، بل إنه منح لكل إنسان حق النجاة وقال:"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".. أي لم تكن الغاية من خلق الإنسان إلا ليكون عبدا لله، ويتصف بصفاته حتى تترآى في مرآة قلبه.

لقد أبطل الله في هذه الآية اثنتين من دعاوى اليهود هما: أن الجنة حق مستحق لهم، وأنه لن يدخلها أحد سواهم، مبينا لهم أنكم تدعون أن الجنة تخصكم وحدكم وأن

النبوة قاصرة عليكم دون سواكم .. فتعالوا تمنوا الموت حتى نحسم هذه المسألة إن كنتم صادقين.

ولقوله تعالى" فتمنوا الموت إن كنتم صادقين " معنيان: الأول- تعالوا باهلوا المسلمين بالدعاء إلى الله تعالى أن يهلك الكاذبين؛ فإن تكونوا صادقين ينجكم الله وتزدهروا ويهلك المسلمين، والعكس بالعكس. وهكذا يتضح جليا من هم المقربون إليه ومن المغضوب عليهم، ويتبين أي الفريقين أقرب إلى الصدق في دعواه حول الجنة والنجاة ..ذلك لأنه ليس هناك في الدنيا أي طريق آخر لاختبار صدق الأديان المختلفة إلا بتأييد الله لها ونزول الآيات السماوية للصادق منها.

وجدير بالملاحظة أن الله تعالى لم يقل هنا 'فتمنوا موتكم' بل قال (فتمنوا الموت) ذلك لأن من شروط المباهلة أن يدعوا كلا الفريقين بنزول عقاب الله على الكاذب منهما ولا يجوز تعيين فريق واحد.. وذلك طبقا لما جاء في آية المباهلة (فنجعل لعنة الله على الكاذبين)(آل عمران ٦٢).

والمعنى الثاني لقوله تعالى (فتمنوا الموت) هو: إذا كنتم صادقين في دعواكم أنكم أنتم وحدكم أهل النجاة .. للزم أن يكون كل فرد منكم متفانيا في حب الله قائما على قمة الصلاح والطهارة، وقلبه مورد للأنوار الإلهية والبركات السماوية: فلم لا تقضون على حياتكم الدنيئة، ولماذا يجرف سيل حب الدنيا أمة تستحق الجنة وحدها دون سواها، إنما كان عليها أن تتفانى في حب الله ورضاه، وتتحمل المشاق وتبذل النفس والنفيس في سبيله والاستسلام التام له، لأنه خصها بالجنة.

ولكن الله عز وجل يخبر مسبقا:(ولن يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم).. أي أنهم لن يسلطوا هذا الموت على نفوسهم.. لأنهم قد تعودوا على حياة البذخ والتمتع بالملذات، ونسوا نصرة دينه، وفقدوا الإخلاص والحماس للبذل في سبيله، لذلك هم غير متيقنين بأنهم يدخلون الجنة .. فضلا عن أن تكون لهم وحدهم دون سواهم، بل عادوا لا يؤمنون بها.. لأن حب الدنيا قد سرى في كل ذرة من كيانهم، مما يدل دلالة واضحة على أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت.

وإذ ا تساءل أحد أنه ذكر من قبل ادعاء اليهود (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة)... وهنا يذكر قولهم إن الدار الآخرة لهم وحدهم دون سواهم.. فلماذا هذا التعارض، وكيف يصح نسبة القولين إليهم في وقت واحد؟

فلنعلم أن اليهود فرقتان، وبينهما اختلاف في الآراء والعقائد، فإحداهما تزعم أنها تدخل النار أياما معدودة ثم تخرج منها؛ والأخرى تقول: لن ندخل النار إطلاقا. فالآية السابقة تحدثت عن مزاعم الفرقة الأولى، وأما هذه الآية فتحدثت عن الفرقة الثانية التي تزعم أن النجاة مخصوصة لهم دون سواهم، وأن النبوة أيضًا وَقْف عليهم وحدهم. وقد ورد عنها أنه يؤتى بعصاة اليهود إلى باب جهنم، فيتوبون هناك فيرجعون بدون عذاب ويدخلون الجنة (ه .Every Man Talmud ودائرة المعارف اليهودية تحت كلمة Gehenna).

والواقع أن سائر الأديان الأخرى تقريبا كانت تحصر النجاة في اتباعها فقط. وتشدد الهنادك حتى أنهم أمروا بصب الرصاص المغلي في أذن (الشودر)- وهم أحط طبقة في نظام الهنادك- إذا سمع شيئا من كتابهم الديني (الفيدا) .. لأنهم لا يستحقون في نظرهم سماع كلام الله وإن كانوا من خلقه.

والبوذيون، مع أنهم أقل عصبية من غيرهم، وبرغم دعوتهم العامة إلى دينهم.. إلا أنهم أيضًا زعموا بحصر النبوة فيهم دون غيرهم. لذا فإن نظريتهم لم تكن آفاقية وعالمية كالإسلام.

ويمكن هنا أن يعترض قائل بأن المسلمين أيضًا يعتقدون- كاليهود — بأن النبوة الآن انحصرت فيهم، ولا نجاة إلا في الإسلام، فأي فضل في ذلك لهم على غيرهم؟

ونرد على ذلك أولا — بأن الإسلام لا يقول إن كل مسلم يدخل الجنة بالضرورة وإن كان مسلما بالاسم، كما أنه لا يغلق باب النجاة على أمة دون أمة. فمثل هذا الاعتراض لا ينطبق على الإسلام، لأنه نزل لهداية كل شعب وكل أمة، ورسالته موجهة إلى كل فرد من الإنسانية، ولو صدّق بنو إسرائيل هذا النبي لنالوا النجاة، وكذلك فإن هذا الباب مفتوح أيضًا أمام الأمم الأخرى.

ثانيا- الإنسان يعطى بعض الأشياء كحق له، وبعضها رحمة وكرما. ومن صدق دين الحق صارت النجاة حق له؛ بمعنى أن الله تعالى يعده بالنجاة، وإن لم تكن النجاة حقا مستحقا له. ومن هنا فالذي يؤمن بأن الإسلام دين الحق أصبحت النجاة حقا له. لنفس السبب فإن كل من اتبع أي دين حق نال النجاة كحق له. إلا أن هناك أناسا تكتب لهم النجاة رحمة بهم وتكرما من الله تعالى، ورحمته واسعة للغاية كما قال الله عز وجل "ورحمتي وسعت كل شيء"(الأعراف:١٥٧). قد عمت هذه الرحمة اليهود والنصارى والهنادك من دون تمييز، ونظرا لهذه الرحمة الواسعة يمكن لكل أحد أن يدخل جنة الله وينال رضاه. وإنما يصح الاعتراض على الإسلام إذا كان يمنع الآخرين من الدخول فيه، ولكن ما دام قد فتح بابه على سعته لكل شعب ولأتباع أي دين، ودعاهم للانضمام إليه برحابة صدر.. فكيف يصح هذا الاعتراض؟ وإنما الاعتراض على الملل التي أغلقت أبوابها في وجوه أتباع الملل الأخرى ولا تسمح لهم بالانضمام إليها.

وخلاصة القول أن الإسلام لا يحصر النجاة في أتباعه، لأن رحمة الله العامة ليست خاصة بالمسلمين وإنما تعم غير المسلمين أيضًا.

ولا يقول الإسلام إن دخول الجنة منوط بالنطق بشهادة الإسلام، وإنما يعلن أنه إذا تفوه أحد بكلمة الإسلام ولكن لم يجتنب السيئات لم يستحق الجنة. كما يمكن أن يدخل الجنة دون أن يكون مسلما.. لأن الجنة لا تنال فقط بمجرد الإقرار باللسان، وإنما تنال بالقيام بواجبات عديدة.

كما أن دخول الجحيم ليس مداره على مجرد الإنكار باللسان، وإنما هو نتيجة لأسباب شتى. لا يمكن أن يدخل أحد النار وإن كان منكرا لحقائق كبرى ما لم تقم عليه الحجة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا يؤاخذ الله من مات في الصغر، أو من بلغ أرذل العمر فصار كالمعتوه، أو المجنون، أو الأصم، وإنما يبعث لهم نبي من جديد، وتتاح لهم الفرصة للتمييز بين الحق والباطل فمن قامت عليه الحجة أدخل النار، ومن اهتدى أدخل الجنة. (روح المعاني تفسير قوله تعالى (وما

كنا معذبين حتى نبعث رسولا). فالنظرية الإسلامية حول النجاة هي أن الله تعالى إنما يؤاخذ من لا يقبل الحق، أو يتهرب من سماعه حتى لا يضطر لقبوله، أو من قامت عليه الحجة و لم يؤمن. ولقد أشار إلى ذلك الإمام المهدي والمسيح الموعود قائلا: "إذا علم الله تعالى أن أحدا لم تقم عليه الحجة فأمره إلى الله، ولسنا ندخل في ذلك. وأما اللذين جهلوا أمر الإسلام تماما وماتوا كالصغار الذين يموتون قبل سن الرشد أو المجانين أو الذين يسكنون في أرض لم تصل إليها دعوة الإسلام فهم معذورون) (حقيقة الوحي، ١٨٧). وقال في مكان آخر : (وإن قلتم : ماذا تقول في نجاة الذين لم يصل إليهم كتاب إلهامي؟ قلنا: إذا كان هؤلاء همجا لا يعقلون شيئا فإنهم لا يحاسبون على شيء، ويجري عليهم ما يجري على المجانين ومسلوبي الحواس. ولكن الذين يتمتعون بشيء من العقل والشعور فإنهم يحاسبون بقدر عقولهم وشعورهم) (البراهين ألاحمدية مج ٣ ص ٢٠٣). وإن تساءل أحد: إذا أمكن أن ينال أحد النجاة بدون قبول الإسلام فماذا يعني قول الله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) (آل عمران: ٨٦)؟ نقول: إن هذه الآية تبحث في النجاة التي هي حق كَتَبَهُ الله على نفسه لمن يدخل في دين الإسلام، فلن ينالها إلا المسلمون. ولكن –كما أسلفنا– ليست هذه النجاة حقا أوجبه الإنسان على ربه، وإنما هي أيضًا من أفضاله ونعمه تعالى.. لأن الإنسان لا يملك أي حق على الله عز وجل. فالمسلم ينال النجاة بعمله بالقرآن أما الآخرون فتكتب لهم النجاة رحمة بهم. فمثلا: الصغار الذين يموتون قبل البلوغ والصم، والمجانين، والمعتوهون، فيتاح لهم فرصة للإيمان، أو يحكم الله فيهم حسب إيمانهم الفطري، ويرى هل عملوا بحسب إيمانهم ذلك أم لا.. وإلا فمنذا الذي يمنع الله تعالى –إن أراد– أن يغفر لأحد؟ إ نه مالك يغفر لمن يشاء. أما قوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه).. فإنما جاء ليبين أن من أعرض عن الإسلام حرم من النجاة بحسب القانون العام، لأنه بنفسه سد في وجهه باب النجاة، وحرم نفسه من أخذ هذا الحق. ثم إن هناك أسبابًا أخرى للنجاة ولا مانع إطلاقا من نجاة أحد لسبب منها.

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٦)

التفسير: لهذه الآية تفسيران بالنظر إلى معنى قوله تعالى: (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين). فإذا كان المراد بتمني الموت هو المباهلة .. يكون المعنى أنهم لن يدخلوا معكم في المباهلة أبدا، وهروبهم من المباهلة دليل على أنهم يعرفون في قرارة نفوسهم أنهم لم يفعلوا ما يرضي الله تعالى، بل أسخطوه بأعمالهم، وأنهم إن باهلوا المسلمين لعاقبهم الله عليها.. وإلا فما المانع من الإقدام على المباهلة؟

وإن عنينا بقوله(فتمنوا الموت) الاستسلام لله لكسب رضاه، والقضاء على أهواء النفس- وهو أول خطوة إلى الحياة الأبدية، فمعنى الآية أنهم لن يستعدوا أبدا للموت الروحاني الذي يهبهم الله به الحياة الأبدية، لأن كثرة المعاصي قد طوقتهم ومسخت روحانيتهم. فلن يفكروا بعد ذلك مجرد تفكير للقضاء على أنفسهم لمرضاة الله تعالى.

ويبين قوله تعالى (والله عليم بالظالمين) أن علامة الكاذبين أنهم لا يُقدِمون على المباهلة أبدا، بل لا يزالون يتهربون منها بشتى الأعذار.. ولكن إلام الفرار؟ لا بد أن يعاقبوا حتى يتبين الصادق من الكاذب. فالويلات التي تكالبت وتوالت على اليهود توضح للناس حقيقتهم ومصيرهم.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٧).

شرح الكلمات:

يوَدّ –يعني يحب. ولكن إذا أضيف إليها لو فيعني التمني (المنجد).

التفسير: يمكن تفسير هذه الآية بطريقين: أولا-أن اليهود حريصون جدا على طول العمر حتى أنهم أكثر حبا للحياة من المشركين المنكرين للبعث بعد الموت الذين يحبون أن يعمروا حياة طويلة.

وثانيا- تجدهم أحرص الناس على الحياة، كما أن بعض المشركين أيضًا يحبون الحياة أكثر. وكأنه سبحانه وتعالى ذكر المشركين بعد الناس خاصة لإبراز شدة حبهم للحياة، وهذا كما يقال: جاء القوم وزيد وعمرو.. مع أنهما من القوم الذين جاءوا، وذُكرا بالاسم للتأكيد.

والمشركون صنفان: صنف يكفر بالبعث بعد الموت، ويعيش في الدنيا في رفاهية وراحة، وهم بالطبع يحرصون على طول الحياة الدنيوية. وصنف ثانٍ يُنكر البعث، ولكنه لا يجد معينًا هَنيًّا ذا رفاهة وراحة، فيتمنون انقضاء الحياة هروبا من مشاقها ومشاكلها..ظنا منهم أن في انقضائها راحة لهم، ومن أجل ذلك قال الله تعالى (ومن الذين أشركوا).. أي ليس كل المشركين كذلك.. وإنما بعضهم من يتمنى حياة ألف سنة.

ويستنبط من الآية-مجرد استنباط، لا كنص صريح أن فكرة عيش أحد من البشر ألف سنة مخالفة للقياس في رأي القرآن. وأذكر أن الإمام المهدي والمسيح الموعود أثناء تصنيف كتابه (جشمه معرفه-أي ينبوع المعرفة)كان أحيانا يذكر مضامينه لبعض الإخوة.. فقال مرة "إنني رددت على اعتراض الآريين على أن نوحا عاش ٩٥٠ سنة، وقلت إن القرآن عندما يذكر عمر نبي فلا يراد به عمره نفسه، وإنما عمر أمته". وبينما هو يذكر ذلك حضر جدنا المير ناصر نواب، وقال: صحيح ما تقولون، ولكن الناس بسبب هذه الآراء يتجهون إلى الدهرية. فقال: "فليتجهوا، ولكننا لن نتردد في عرض أي حقيقة تبين صدق الإسلام. وإن اتجه الناس بسببه إلى الدهرية".

فالقرآن عندما يذكر طول عمر نبي من الأنبياء فليس المراد عمره وإنما عمر أمته.

وفي قوله تعالى"وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر" يرجع الضمير (هو) إلى (أحد) في قوله(يود أحدهم..)والتقدير: وما أحدهم بمزحزحه تعميره من العذاب.

يبين الله تعالى أن التمني بعمر طويل لن يجديهم شيئا،لأن الساعات الطويلة من الراحة لا تساوي شيئا أمام لحظة قصيرة من العذاب، فما الفائدة من العمر المديد

الذي لن ينجيهم من العذاب؟ وتدل هذه الأماني على حمقهم وجهلهم، ولكنهم يرتكبون هذه الحماقة كما ارتكبوا الحماقة السابقة..حيث زعموا أن الله لن يتكرم على أحد سواهم بنعمة النبوة. فهؤلاء الحمقى لا يدعون بكشف العذاب، وإنما يتمنون تأجيله لبعض الوقت، مع أن تأجيله لن يجديهم شيئا. كان عليهم أن يقبلوا الإسلام الذي يفتح لهم باب النجاة، ولكنهم بدلا من طلب النجاة من العذاب والفوز برحمة الله بقبول الإسلام يسعون لتأجيله.

الترتيب والربط:

لقد كان الله تعالى قد نبه اليهود في الآية (رقم٨٨) أنكم كنتم ولازلتم تعارضون الأنبياء من زمن موسى إلى عيسى.لا شك أن آباءكم هم الذين عارضوهم و لم يكن لكم ضلع مباشر في هذه المعارضة، ولكن لما كان سبب المعارض واحدا وهو كون تعاليم النبي مخالفة لأهوائكم.. لذا اعتبرتم من معارضيهم أيضًا؛ إذ لو أنكم عاصرتم أولئك الأنبياء لعاملتموهم بمعاملة آبائكم.

وفي الآية(٨٩) قال لليهود ونبههم أنكم بمثل هذه الأقوال كنتم تستهزئون بأنبيائكم وتتكبرون عليهم.

وفي الآية (رقم٩٠) بين أن حلول الغضب الإلهي بكم وعاداتكم المتوارثة القبيحة هي التي شجعتكم على الكفر بالنبي الموعود الذي كنتم تنتظرونه.

وفي الآية (رقم٩١) ذكر ما برروا به كفرهم.. ألا وهو قولهم: لماذا بعث هذا الموعود في أمة غير أمتنا؟

وفي الآية (رقم٩٢) صور الله- عز وجل- استكبارهم وتمردهم الداعي إلى الإنكار.. حيث بين أنه عندما يعرض عليهم دعوى النبي صلى الله عليه وسلم يردون على الفور وبدون تردد: لن نؤمن إلا بما أنزل على أنبياء بني إسرائيل ونكفر بما وراءه..مع أن هذا النبي قد أتى بحسب ما تنبأ به أنبياء بني إسرائيل أنفسهم. ثم أخجلهم سبحانه بذكر معارضتهم لأنبيائهم من حين لآخر، وقال: إنكم عندئذ لم تؤمنوا بهم.

وفي الآية (رقم٩٣) بين أنكم لم ترتدعوا حتى عن معارضة موسى فضلا عن غيره من الأنبياء.

وفي الآية(رقم٩٤) ذكر أنكم قمتم بهذه المعارضة فور رجوعكم من الطور بعد أن آتاكم الله العهود.

وفي الآية(رقم٩٥) صرح بأنهم كاذبون في قولهم بأننا نؤمن بما ينزل على أنبياء بني إسرائيل، وإنما يرجع إنكارهم إلى أنهم يزعمون أن النجاة قاصرة عليهم. إذن، فليباهلوا المسلمين إن كانوا صادقين.

وفي الآية (رقم٩٦)أعلن أنهم لن يتجاسروا على المباهلة، لأن قلوبهم تشهد أنهم كاذبون.

وفي الآية (رقم٩٧) صرح أنهم أسوأ حالا من المشركين أيضًا، وبين أنهم يخافون الموت لأنهم يعلمون أن مصيرهم النار في الآخرة، ولكنهم لن يذوقوا في الدنيا طعم الراحة والهناء.. فما الفائدة من هذه المعاذير؟

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٨)

شرح الكلمات:

جبريل –اسم مركب من "جبر" و"إيل". و" جبر" في العبرية تعني:الخادم، الغلام. و"إيل" تعني: الإله. فمعنى جبريل: خادم الإله أو غلامه. و"الجبر" في العربية إصلاح الشيء من كسر، وإكراه الآخر على فعل شيء، والرجل الشجاع. قال ابن عمر الشاعر:"وأنعم صباحا أيها الجبرا".

فمعنى الجبر بالعبرية مشابه لمعناه في العربية.

أما "إيل" فهناك بون شاسع بين اللغتين في صدد معناها. فهي في العبرية تعني عموما الإله، ولكنها لا توجد في العربية لفظا ولا معنى. إلا أن هناك في العربية "آئل".. اسم الفاعل من "آل" يقال– آل الملك رعيته: ساسهم ودبر أمورهم، وآل

على القوم: ولي عليهم، وآل: رجع. فالآئل: المدبر؛ الحاكم؛ الملك؛ الراجع (الأقرب). وكل هذه المعاني تناسب الله تعالى.

فمعنى جبريل إذن: (١)خادم الملك الشجاع المدبر،(٢) غلام شجاع مخلص لذات مدبرة،(٣) غلام شجاع مخلص لله الذي يرجع على عباده برحمته مرة بعد أخرى.

وتعني "إيل" في العبرية معاني أخرى مشابهة لمعاني "آئل" في العربية. فيرى بعض كبار علماء العبرية أن "إيل" تعني القوي (دائرة المعارف التوراتية، ج٣)، وهذا المعنى قريب من الحاكم والمدبر.

في حين يقول البعض الآخرون أن معناها الذات التي هي مرجع جميع الناس.

وهذا المعنى يشابه معنى الراجع أو التواب.. ولكن بفرق بسيط، وهو أن جبريل يعني بالعربية "خادم الإله التواب".. أي الذي يرجع على عباده بوحيه مرة بعد أخرى، ويتوجه إليهم برحمته عند ندمهم كرة بعد أخرى. ولكن "إيل" العبرية تعني الذي يرجع إليه الناس جميعا. فكلتا اللغتين تذكر معنى الرجوع. العربية تقول: هو يرجع إلى عباده، والعبرية تقول: الناس يرجعون إليه. ويرجع هذا التغير في الحقيقة إلى أن اليهود لا يؤمنون بكون الله توابا. وكيف يؤمنون بذلك وهم يعتقدون أن النجاة حق مستحق لهم على الله عز وجل، إنما يؤمن بكونه- سبحانه- توابا من لا يرى نجاته حقا على الله تعالى، بل يراها متوقفة على رحمته وفضله. ومن أجل ذلك غير اليهود معنى "إيل". وقالوا هو الذي يرجع إليه الخلق كلهم، وليس الذي يتوب عليهم رحمة بهم مرة بعد أخرى. ولذا لا نجد في اللغة العبرية أي اثر لصفة إلهية كالتواب. ولكن الأصح أن نأخذ المعنى الأصلي فنقول في جبريل: الخادم الشجاع المخلص لله، الذي يرجع إلى عباده مرة بعد أخرى، أو الخادم الشجاع المخلص للذات المدبرة.

التفسير: يتفق القرآن والتوراة على أن جبريل هو سيد ملائكة الله المقربين، ومهمته تبليغ كلام الله إلى عباده. ولكن اليهود في زمن انحطاطهم اعتقدوا أن جبريل ملك حرب وعذاب(دائرة المعارف التوراتية، كلمة جبريل). واعتبروه عدوا لهم . فقد

روى أحمد في مسنده وابن كثير في تفسيره أن المسلمين لما كانوا يفحمون اليهود بإثبات صدق النبي ﷺ بالحجج والبراهين.. كانوا يسألونهم: حسنا، من ينزل عليه بالوحي؟ قالوا: جبريل. قالوا:جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا(تفسير ابن كثير، تحت قوله تعالى: قل من كان عدوا لجبريل). لقد تسرب هذا الاعتقاد الخاطئ في اليهود عن طريق الروايات التلمودية وتفاسير (تارجم).. وإلا فإن التوراة تعتبره مَلَكا ينزل بوحي الله حيث قيل:

"وسمعت صوت إنسان بين أولادي فنادى وقال: يا جبرائيل، فهم هذا الرجل الرؤيا. فجاء إلى حيث وقفت، ولما جاء خفت وخررت على وجهي. فقال لي افهم يا ابن آدم. إن الرؤيا لوقت المنتهى"(دانيال ٨:١٦، ١٧).

وورد أيضًا: "وأنا متكلم يعد بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا في الابتداء مُطارا واغِفا لَمَسَني عند وقت تقْدِمة المساء. وفهَّمني وتكلم معي.." (دانيال٩:٢١، ٢٢).

وورد في الإنجيل " فأجاب الملاك وقال له: أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا"(لوقا١:١٩).

وقال أيضًا: "وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينته ومن الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء.."(لوقا١:٢٦).

ولكن فيما بعد اعتبر اليهود جبريل ملك العذاب، واعتبروا ميكائيل ملك الوحي. كانوا إلى عهد النبي دانيال يؤمنون بأن جبريل ملك الوحي وأن ميكائيل ملك الرقي الدنيوي، لكنهم شيئا فشيئا خصوا الوحي بميكائيل والعذاب لجبريل.

لذلك بدءوا يكرهونه حتى زعموا في زمن النبي ﷺ أنه ملك الرعد والعذاب (دائرة المعارف التوراتية، تحت كلمة جبريل).

ويبدو أنه لما كان اليهود قوما مغضوبا عليهم، وكان كل نبي ينذرهم بالعذاب والدمار عندما يكفرون به.. فظنوا – بسبب توالي نزول العذاب عليهم– أن جبريل عدو لهم، فهو الذي ينزل بوحي الله المنذر لهم بالعذاب، فاعتبروه عدوا لهم،

وقالوا لسنا بحاجة إلى الإيمان به؛ وإنما الملك الحقيقي الذي يجب قبول ما ينـــزل به من وحي هو ميكائيل.

واليوم أيضًا..عندما يشهد الناس العذاب نازلا بحسب ما تنبأ به الإمـــام المهـــدي والمسيح الموعود عليه السلام يعترضون: ما هذا النبي الذي جاء ليهلك الخلق؟ وهذا مثلما كان اليهود يعترضون على جبريل. فهنا دحض الله اعتراضهم على جبريـــل. وقوله"فإنه نزله على قلبك "ورد هنا بمعنى أنهم يعادون جبريل لأنه أنزل عليك هذا الكتاب،مع أنه كتاب جامع لميزات عديدة جديرة أن يحبه الإنسان لا أن يبغضه.

لقد رد الله سبحانه على اعتراض اليهود بأربعة طرق:

أولا- أنه لا يمكن لملك أن ينـــزل الكلام من عنده، إنما ينـــزل بإذن الله. وأيا كان الملك النازل بالكلام..جبريل أو ميكائيل الذي تعتبرونه صديقا لكم.. فإن صاحب الكلام هو الله تعالى، لذا فإن كراهيتكم هي لكلام الله تعالى، وليست للملك.. لأن الكلام هو هو .. ولن يتغير بتغير الملك الذي يأتي به. فكيف ترفضون هذا الكلام بسبب بغضكم الذي تكنونه لجبريل تأثرا بروايات قومية، لأن الكلام كلام الله ولا بد من قبوله.

أما قولكم: لماذا نزل به جبريل، و لم لم ينـــزل به ميكائيل، فهذا أيضًا مردود، لأن جبريل لم ينـــزل به من نفسه، وإنما بأمر الله تعالى.. وما دام الله سبحانه قد أمـــر بذلك، فلماذا تعادونه مع أنه لا بد أن ينفذ ما يأمر به؟

وبرهن على أفضلية هذا التعليم بأنه تعالىأنزله على قلبه ﷺ، فصارت عواطفـــه متشربة هذا التعليم. وهنا بين الله الفرق بين أفكار الفلاسفة والكلام المنـــزل على الأنبياء، ووضح أن هذا الكلام ينـــزل على قلب النبي، ولكن أفكار الفيلـــسوف تنـــزل على دماغه. لا شك أن الفيلسوف أيضًا يقول قولا جميلا، ولكن عواطفـــه لا تكون تابعة لأفكاره، ولا يعمل بما يقول. ولكن النبي يعمل بما ينـــزل عليه من الكلام. لقد مضى العديد من الفلاسفة اللادينيين الكبار الذين تمتلئ كتبهم بأقوال جميلة في الأخلاق، ولكن الإنسان يصاب بصدمة حين يطلع على سيرتهم. ذلـــك لأن فلسفتهم إنما تنـــزل على دماغهم، وكلام الله تعالى ينـــزل علـــى القلـــب،

ولذلك يهب الإنسان حياة طهارة ونزاهة، ولكن فلسفة الفيلسوف لا يمكن أن تطهر قلبه. وإلى هذا يشير الله بقوله (فإنه نزله على قلبك) أي جعله يسري في كيانك وروحك حتى صرت قرآنا مجسما، كما روى أن السيدة عائشة رضي الله عنها سُئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن ".. أي اقرأ القرآن، وكل ما تجده فيه كان موجودا في شخصه ﷺ.

فبقوله تعالى (فإنه نزله على قلبك بإذن الله) رد من ناحيته على اليهود أن جبريل قد نزل بهذا بأمرنا وليس من عنده، حتى لا يقال إنه لعداوته لكم نزله على رجل من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل. ومن ناحية أخرى أشار بذكر القلب المطهر للنبي ﷺ إلى أن جبريل –بأمر الله تعالى – قد أدى الأمانة المطهرة إلى من كان أحق بها وأهلها، وليس الأمر كما تظنون أنه لعداوته لكم و بدون أي سبب آخر أنزل الكلام على رجل من بني إسماعيل.

وثانيا–بين بقوله (مصدقا لما بين يديه) أن الكلام المنزل على هذا النبي مصدق للنبوءات الواردة في كتبكم. وهذا دليل صداقة لا عداوة. حيث نزل بكلام يبين صدق كتبكم،إذ لو لم ينزل جبريل بهذا الكلام، و لم يبعث هذا النبي في هذا العصر، أو لم يأت من بني إسماعيل لوجب تكذيب التوراة واعتبار نبوءاتها باطلة. فجبريل لم يعادكم وإنما نصح لكم. لو كان حقا عدوا لكم ما صدق كتبكم. فاقبلوا هذا الكلام ولا تردوه، فهو خير لكم وفيه شرفكم.

وثالثا– إن هذا الكلام، بالإضافة إلى مزاياه الأخرى، يتسم بكونه هاديا،أي يهديكم إلى سبيل الحق، ويبين لهم طريق النجاة من الضلال. إذا كان القرآن لا يأمركم إلا بالتقوى والصلاح والعفاف.. فيجب أن تدركوا ضرورة قبوله لتصبحوا من المتقين الأطهار. أما إذا كان يؤدي إلى الباطل والضلال فلكم أن تكفروا به، ولكنكم تعلمون أنه لا يهدي إلى الباطل وإنما إلى الحق. وإنكار الشيء أو قبوله يتوقف على كونه حقا أو باطلا. وما دام هذا الكلام حقا ولا يأمر إلا بما فيه خير الإنسانية وفلاحها.. فيجب ألا ترفضوه لأي سبب آخر.

ورابعا- أنه كلام يبشر العاملين بحسب تعاليمه بجوائز كثيرة. وكأنه سبحانه وتعالى يقول: إذا كان أحد لا يقبل الحق لأنه في حد ذاته حق، بل يريد أيضًا المكافأة على قبوله.. فليعلم أن من عمل به بصدق النية نال جوائز كبيرة، ومن أعرض عنه فلن يضر إلا نفسه. فقوله تعالى(وبشرى للمؤمنين) أي يدحض قول اليهود إن جبريل ملك العذاب، إذ كيف يكون ملك العذاب من لا ينزل عليهم إلا بكلام ملؤه البشارات.

يقول: لا منطق في قولكم. فما يتنزل هو من الله تعالى، ولا فرق أن ينزل به جبريل أو ميكائيل. فإذا كان الكلام هو مصدر العداوة، فعادوا الله وليس جبريل الذي هو فقط الوسيط بينكم وبين الله جلّ علاه. ولكن أمركم عجيب تزعمون أنكم أحباء الله وتسبون رسوله جبريل الذي يأتيكم بكلامه. ثم تناصبون العداء للرسول محمد ﷺ وتقولون: لماذا نزل عليه جبريل بالوحي، ولا تفكرون أن كلامه يصدق كتبكم. فكيف يمكن أن يصدق كتبكم بكلام فيها هدى ورحمة من يكون عدوا لكم؟ يجب إذن ألا تضيعوا الفرصة قائلين: لماذا جاء به جبريل و لم يأت به ميكائيل، بل عليكم بقبول محمد رسول الله ﷺ.

قد ذكرت هذا المعنى باعتبار كلمة " فإنه" تعني "لأنه" أما إذا اعتبرنا "الفاء" بمعناها العام فلا بد من تقدير محذوف، وتكون العبارة هكذا: قل من كان عدوا لجبريل فلا وجه لعداوته، فإنه نزله على قلبك.. الخ الآية. ولقد جاء جواب (قل من كان عدوا لجبريل) في قوله تعالى(فإن الله عدو للكافرين).. وكان قوله تعالى(فإنه نزله على قلبك.. هدى وبشرى للمؤمنين) جملة معترضة. ولما كانت الجملة الاعتراضية طويلة فقد أعيد مضمون قوله (قل من كان عدوا لجبريل) في الآية القادمة، فأضيف ذكر جبريل إلى ذكر الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فقيل: (من كان عدوا لله..) وجاء الجواب: (فإن الله عدو للكافرين).

وقد أضيف ذكر ميكال في الآية لأن عداوة جبريل تعتبر عداوة لميكائيل أيضًا. وتعني الآية أن العداوة لجبريل تعتبر عداوة لميكائيل أيضًا. فالذين يعادون جبريل

يجب أن يعرفوا أن ما أنزل على قلب هذا الرسول إنما أنزله بأمر الله تعالى، فلا وجه لعداوته، ولا تعني عداوته إلا عداوة الله جل علاه.

ثم إن كلامه يصدق ما ورد في كتبكم من نبوءات، فلو كان عدوا لكم لما نزل بما يصدق كتبكم، مما يعني أنكم لا تعادون جبريل وإنما تعادون كتبكم. ثم نزل هذا الكلام حال كونه هاديا ومبشرا، ومن عادى هاديا فكأنما عادى نفسه، ومن عادى من يبشره فكأنه عادى أجياله المقبلة.. إذ إن الهدى يتعلق بالإنسان نفسه، أما البشارات فتختص بالأجيال المقبلة. وإن الهدى لا يورث، ولكن النعم الدنيوية يتوارثها الأجيال عموما.

فقد ذكر الله أن اليهود يعادون منبع الهدى- وهو الله تعالى. ثم يعادون وسائل الهدى- وهم الأنبياء الذين هم أظلاله في الدنيا. ثم إنهم يعادون أنفسهم وأجيالهم القادمة حيث يحرمونهم من الأفضال والنعم التي ينالها المؤمنون. فعداوة جبريل ليست بأمر هين، بل من عاداه فقد عادى الله تعالى ونفسه وأجياله. وإن عداوة أحد محمدًا ﷺ ليست إلا عداوة لله تعالى، والكفر بما نزل على محمد هو في الحقيقة إنكارلموسى الذي بشر به.. ففكروا.. أمصيبون أنتم أم مخطئون في عداوتكم له ؟

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٩).

التفسير: لقد بين الله هنا أن الملائكة مجرد وسائط؛ كما أن الهواء واسطة لإيصال الصوت إلى الأذن. فمن يعاديهم إنما يعادي من يرسلهم، ويتهمه بالخطأ في انتخاب الوسيط. فتبين من هذه الأفكار أن اليهود أعداء الله تعالى، لأن إهانة السفير هي في الحقيقة إهانة للملك. ومن رفض أحد الملائكة فكأنه اتهم الله بعدم التوفيق في اختيار سفير مناسب، ومن ثم ففي عداوة جبريل عداوة لله. كما أن عداوته تثير عداوة الملائكة كلهم لأنه واحد منهم. ثم إن عداوته تثير عداوة الأنبياء كافة،لأنه الذي نزل عليهم بالوحي منذ الأزل.

وتكرر ذكر جبريل مرة أخرى ليحذر اليهود من عداوة جبريل، وإلا أدت عداوتهم له إلى عداوة الله. والذي يعترض على الله – جل علاه – لا بد أن يعترض على الملائكة كلهم وعلى الأنبياء أيضًا،لأن تعظيم هؤلاء كلهم يدخل في طاعة الله تعالى. فاتهام فرد من أفراد السلسلة الروحانية وعداوته يبعد المعادي عن الهدى، ويصيِّره عدوًا لله تعالى، فيحرم من نيل تلك البركات والأفضال التي تتنزل على أحباء الله جل علاه، كما يجعل نفسه هدفا لعذاب الله الذي لا يصيب إلا الذين يخالفون عن أمره. وخص ميكال بالذكر بعد جبريل لظن اليهود أن ميكال ملك عطوف عليهم، فكانوا يسمونه الملك المحافظ أو المؤيد (دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة ميكال). ومعنى ميكال: مثل الإله، ويبدو أنه سمي بذلك لأنه يدبر الأمور التي تختص بصفة ربوبية الله تعالى؛ أي أنه يدبر أرزاق الخلق. فجبريل يدبر الأمور الروحانية، فيأتي بالوحي من الله سبحانه، فعمله مختص بالهدى. وأما ميكال فعمله مختص بالبشرى.. أي تدبير الأمور لرقي الخلق. والبشرى تكون دائما تالية للهدى، ذلك أن الإنسان إذا عمل بهدي جبريل وصار مهديا نال أيضًا البشرى بالنعم الدنيوية. أما إذا أعرض عن هدي جبريل وصار عدوا لله.. أعرض عنه ميكال تلقائيا وصار له عدوا. لذلك حذر الله اليهود أنهم إذا عادوا جبريل صار ميكال أيضًا عدوا لهم، وهكذا يخسرون الدنيا والآخرة. وقد خص الله جبريل وميكال بالذكر للتوكيد أيضًا، كي يتذكر عدوهما أن عداوته لهما عداوة الله تعالى وملائكته والنبيين أجمعين. وخصهما بالذكر أيضًا لبيان أن الملائكة في حد ذاتهم ليسوا بشيء، وإنما هم وسائط. وقد شبههم سيدنا المهدي والمسيح الموعود بالهواء(توضيح المرام، ص٤٦)؛ فكما أن الهواء واسطة توصل صوت المتكلم إلى أذن السامع..كذلك الملائكة واسطة توصل كلام الله إلى العباد. فمن عادى هذه الواسطة فكأنه يعادي من صنعها، ومن اعترض عليهم فكأنه يخطئ الله في اختيارهم. فالعداوة لجبريل هي في الحقيقة عداوة الله تعالى، ومن عادى السيد عاداه أتباعه أيضًا. ومن أجل ذلك قال الله إن ميكال أيضًا يكون عدوه.لأن الله هو سيده والملائكة اتباعه، وهم كحلقات السلسلة، إذا انكسرت حلقة منها انكسرت

السلسلة كلها، وهكذا فعداوة جبريل تؤدي إلى عداوة الملائكة كلهم. ونظرا لأن اليهود سموا ميكال صديقا وأميرا ومحافظا لهم..خصه الله هنا بالذكر ليبين أنه أيضًا عدو لهم نتيجة عداوتهم لجبريل. ومن أسباب ذكره أيضًا أن من عادة بعض الناس أنه إذا سبَّ أحد شخصية ذات قداسة وتقدير لديهم سبوا الشخصيات المقدسة عنده تعصبا. ولما كان من المحتمل أن يأتي على جهلاء المسلمين زمان يسبون فيه ميكال تعصبا ضد اليهود، وينحازون إلى جبريل كما انحاز اليهود إلى ميكال، زاعمين أن جبريل محافظ لنا كما كان ميكال محافظا خاصا لكم.. أقول: لما كان هذا محتملا..خص الله ميكال أيضًا بالذكر منعا للمسلمين من التورط في هذا الخطأ، وبين أن الملائكة كلهم مقربون عند الله، فلا داعي لعداوتهم، ولا تسبوا ميكال إنْ سب اليهود جبريل عدوا بغير علم. يتبين من التوراة أن ميكال ملك يدبر الأرزاق ويحفظ من الأخطار..حيث قيل: "وهو ذا ميخائيل واحد من الرؤساء الأولين جاء لإعانتي وأنا أقيم هناك عند ملوك فارس "(سفر دانيال:١٠:١٣). وورد أيضًا:"..أخبرك بالمرسوم في كتاب الحق. ولا أحد يتمسك معي على هؤلاء إلا ميخائل رئيسكم "(سفر دانيال ١٠:٢١) وقيل أيضًا:" وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت ينجي شعبك كل من يوجد مكتوبا في السفر "(سفر دانيال ١٢:١). وفي قوله تعالى:(فإن الله عدو للكافرين).. جاء بلفظ الجلالة بدلا من الضمير كي لا يظن أن الضمير راجع إلى ميكال نفسه، ويبين لهم: أنكم إذا لم ترتدعوا عن عداوة جبريل فلا بد أن تجلبوا على أنفسكم عداوة الله أيضًا.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (١٠٠).

التفسير: يستدل المسيحيون من قول الله في سورة البقرة (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية)الآية(١١٩) على أن محمدا ﷺ لم يؤت أية معجزة.

إنهم من ناحية لا يرون حكمة البينات في شأن المسيح – كما ذُكر قبل بضع آيات، ويستدلون بها على أن المسيح لم يكن نبيا كغيره من الأنبياء فحسب، بل كان ابن إله وإلها، ولكن من ناحية أخرى حينما يرون كلمة البينات في حق النبي ﷺ يمرون عليها متجاهلين، بل يقولون: انظروا، إن معارضيه كانوا يقولون له: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آيه.. مما يعني أنه لم يرهم أية معجزة!

ولو جاز هذا الاعتراض على النبي ﷺ لأن الكفار طالبوه بالمعجزات.. لجاز أيضًا على المسيح [عليه السلام] حيث قيل: " حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم، نريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال له: جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطي له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال " (متى ١٢ : ٣٨ ، ٣٩).. والمعنى إذن أنه [عليه السلام] لم ير اليهود أية معجزة إلى وقت جوابه هذا. ويتضح من جوابه كذلك أنه لم ير اليهود أية آية أخرى طول عمره، ذلك أن معجزة المسيح المشابهة لمعجزة النبي يونس هي تلك التي ظهرت حين وفاته، وكان طلب اليهود أن يريهم آية وقت المحاورة، ولكنه رد عليهم –فيما يرويه إنجيل متى: لا يعطى أشرار وفساق هذا الزمن أية آية إلا آية يونس النبي. وكأنه أظهر عجزه عن الإتيان بالمعجزة المطلوبة. وهذا يوضح جليا أنه لم يرهم أية آية قبل ذلك الحين. نعم، إنه وعد بمعجزة واحدة فيما بعد، ومع ذلك فقد أخلف هذا الوعد أيضًا.. حيث يزعم المسيحيون أن المسيح مات على الصليب، ودخل القبر جثة ميتة.. في حين أن النبي يونس [يونان] ألقي في البحر وهو حي والتقمه الحوت وهو بعد حي، ومكث في بطنه حيا، وخرج من بطنه حيا.. في حين أن المسيح في زعم المسيحيين مات على الصليب. وكأنهم بقولهم هذا قد اعترفوا أن المسيح لم يأت بالمعجزة التي وعد بها اليهود وهكذا أقّروا أنه لم يأت بأية معجزة. ولكن موقف القرآن على عكس ذلك، فهو يبين أن النبي الكريم قد أعطي المعجزات بكثرة. يمكن للمسيحيين أن يقولوا: إننا لا نعتبر ما ينسب إلى محمد ﷺ من الآيات معجزات؛ أما قولهم إن القرآن ينكر وجود معجزات للنبي فهو ظلم

مجحف، لأنه يعلن هنا بكل صراحة وجلاء أنه ﷺ قد أعطي معجـــزات كـــبر ى حيث قال:" ولقد أنزلنا إليك آيات بينات". وتعني 'آيات بينات' كل ما أظهره الله تعالى لبيان صدق محمد من آيات ومعجزات لا يمكن أن يوجـــد مثلـــها.. لا في معجزات موسى ولا عيسى –عليهم السلام. ثم اتبع ذلك بقوله(وما يكفر بهـــا إلا الفاسقون). فبالرغم من غزارة مطر المعجزات السماوية فإن الفاسقين الذين خلعوا عن أنفسهم ثوب الطاعة مصممون على الكفر. بيد أن كفرهم لن يغنيهم شـــيئا، وسيهلكون كمن كفَّروا أنبياءهم من قبل وهلكوا؛ ولا بد أن يتم الله خطته التي لم يزل ينبئ بها بلسان الأنبياء في كل زمن.

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١).

التفسير: يقول الله تعالى إن الناس في كل زمن يعطون العهود والمواثيق، ولكـــن لا يمر وقت طويل حتى يغدر بعض منهم بوعودهم، فيكون حالهم أسوأ من ذي قبل. وهذا المرض لم يصب اليهود وحدهم، وإنما أصاب الأمم كافة. والله أعلم إذا كان الناس سينجون من هذه الآفة أم لا. والحق أن بعث نبي ليس بالحدث الهيِّن، وإنمـــا هو حدث جليل وخطير جدا. ففي ذلك الوقت تحدث ثورة في كل ذرة من السماء والأرض، وتمر كل ذرة بكيفية من الألم والاضطراب كالتي تمر بها الحامل وقـــت المخاض. ففي مكان تقع الزلازل، وفي آخر تنشب الحروب، وفي الثالث تتـــساقط الشهب، وفي رابع تتفشى الأمراض، وفي خامس ينتشر المحل والجدب. فيكون العالم كله في ثورة واضطراب.. بحيث يخيل أنه قد ساده الموت والفناء. وأخيرا، بعد هذه الحالة المشابهة للمخاض يولد مولود جميل في القوم، يتربى ويترعرع في كنـــف الله تعالى. ولكن لا تمضي فترة من الزمن حتى يسعى بعض الناس به شـــرا وفـــسادا، ويحاول الشيطان الكيد له بأنواع المكر والحيل. وعلامة هؤلاء الشياطين أن أكثرهم لا يؤمنون.. بمعنى أن معظم هؤلاء يكونون محرومين من الإيمان الحقيقي، ويريدون أن يخرجوا الآخرين أيضًا منه، ويضيعوا الهدف الذي بعث الله رسوله لتحقيقه.